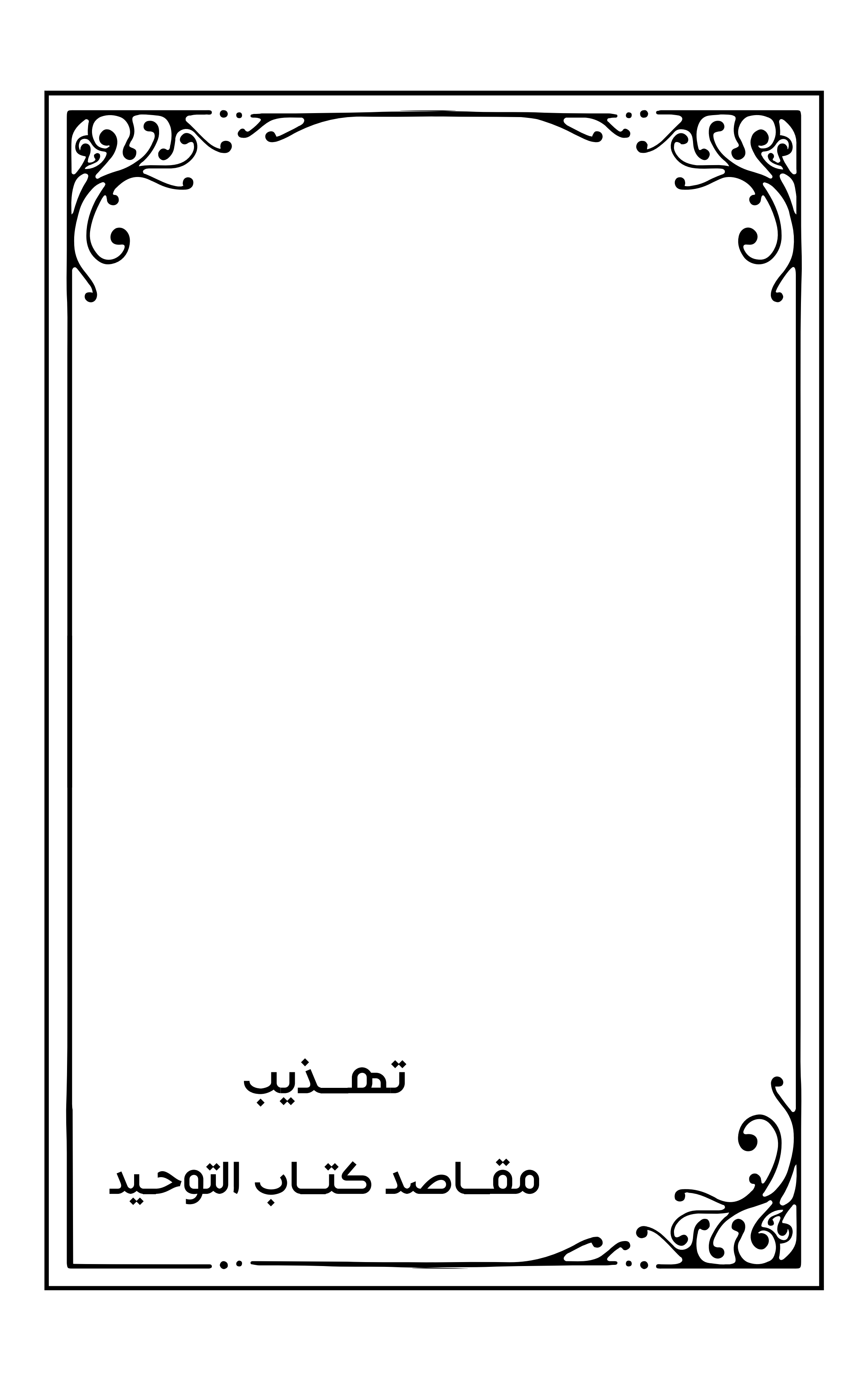


تهـــذيب

مقــاصد كتــاب التوحـيد

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السفياني، محمد بن بسيس الحسني.
تهذيب مقاصد كتاب التوحيد. / محمد بن بسيس الحسني السفياني.
مكة المكرمة، ١٤٤٠هـ
١١٢ ص؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك: ٣-٥-٩١٢٢٧-٦٠٣-٩٧٨
١- التوحيد ٢- العقيدة الإسلامية أ. العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٤١/٥٢٢١

رقم الإيداع: ١٤٤١/٥٢٢١
ردمك: ٣-٥-٩١٢٢٧-٦٠٣-٩٧٨

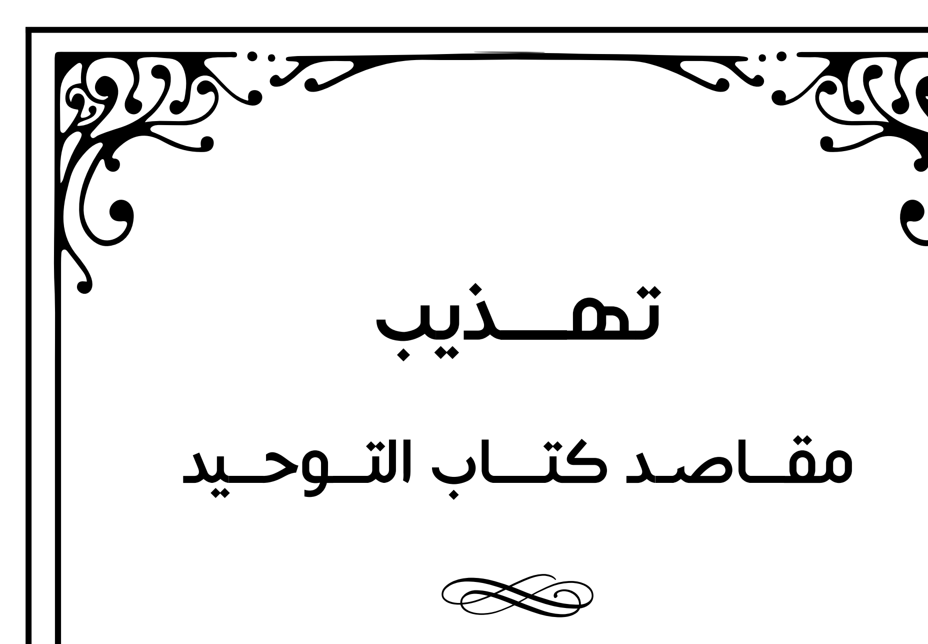
الطبعة الأولى (١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م)



المملكة العربية السعودية - مكة المكرمة
البريد الإلكتروني: Salafcenter3@gmail.com
الهاتف: ٠١٢٥٣٠٦٣٨٨

تهـــذيب

مقــاصد كتــاب التــوحـيد



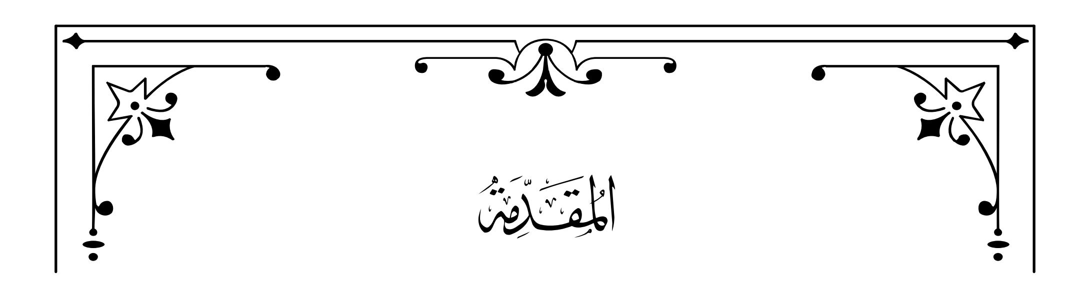
هذبـه

د. محمـــد السفيــاني

أستاذ العقيدة بجامعة أم القرى




بسم الله الرحمن الرحيم
١٣٢٧



المقدمة

الحمدلله الذي تفرَّدَ بالتوحيد، وتنزه عن الشِّرك والتنديد، والصلاة والسلام علىٰ إمام الموحِّدين، وقدوة الناسِ أجمعين، سيدنا رسول الله وعلىٰ آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فعندما أسندت إلي كليَّةُ الدعوة وأصول الدين ممثلة بقسم العقيدة بجامعة أمِّ القرىٰ تدريسَ مادَّة الألوهية، ودرستُها لعددٍ من السنوات؛ وجدت أن شروح كتاب التوحيد -الذي هو مرجع المادة- منها الطويل الذي يضيقُ عنه الفصل الدِّراسي، ومنها المختصر الذي لا يناسب المرحلة الجامعية، ولم أقف علىٰ شرح يجمع بين جودة المادَّة العلمية، وملاءمته للتدريس الجامعي بحيث لا يكون طويلًا ولا مختصرًا.

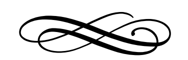
ثمَّ لمَّا أخرج شيخنا **عيسىٰ بن عبدالله السعدي الغامدي** حفظه الله كتابه: «**مقاصد كتاب التوحيد**»، وجدت أنَّه من أجلِّ شروح كتاب التوحيد إن لم يكن أجلها، حيث إنه لم يتوسَّع في المباحث اللغوية والحديثيَّة، وإنما صرف كلَّ الشرح في باب توحيد الألوهية، كما أنه استوعب ما في الشروح من المعارف والأحوال، وزاد عليه تقسيمات وتحريرات ونُقولٍ لا توجد في الشروح الأخرىٰ، فخرج كتاب «**مقاصد التوحيد**» بديعًا في تنسيقه وانسجامه.

وأما ترتيبه فقد أبقىٰ الأبواب الستة الأولىٰ، وعلَّق عليها كما هي في كتاب التوحيد، بينما لم يلتزم بترتيب الأبواب الأخرىٰ، بل قدَّم وأخَّر، وضمَّ النَّظير إلىٰ نظيره، وجعل المسألة مع أختها مراعيًا مقاصد الكتاب دون ترتيبه الذي جعله عليه شيخ الإسلام.

وسبب الإبقاء على الأبواب الستَّة الأولى يرجع إلى ما نبَّهَنَا عليه شيخنا السعدي من أيام تدريسِه لنا، حيث كانَ يؤكِّدُ على أنَّ الستة الأبواب الأولى هي الأصول، والأخرى فروع لها، وهذا ما أشار إليه شيخ الإسلام المؤلف بعد الباب السَّادس حيث قال: "وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب".

ولـمَّا وجدت شرح الشيخ السعدي وافيًا للقصد، ملائمًا للدَّرس، اعتمدته للتدريس لعددٍ من السنوات، ثم بدا لي أن أهذبه لما رأيت من طوله من جهة، وغزارة علمِه من جهة أخرى، وقد التزمت بترتيبه وتقسيماته، وربما جعلت الأقسام المنثورة في بعض المواضع في نقاط وفقرات، وربما زدتُ ذكر فرقةٍ أو طائفة ليست في الأصل لمزيد إيضاح، ولم أغيِّر فيه شيئًا إلا إدخال الأبواب الأولى من كتاب التوحيد، حيث جعلتها متنًا، واختصرت شرحها في الحاشية، مُرجعًا كل موضع إلى النصوص التي جاء الشرح لها، وتركت الإحالات الحديثية في تخريج الحديث وعزوه والحكم عليه كما هي، مع أنَّ تخريج الأحاديث بحاجة إلى مزيد عناية وتتبُّع.

فجاء المهذب في نحو ثلث الكتاب؛ ليسهل تدريسه، وجعله كتابًا تأصيليا، وأمَّا من أراد التَّوسع فيرجع إلى الأصل، وأسأل الله أن ينفعني بهذا المهذب، وأن ينفع به من يقرؤه في الدنيا والآخرة، كما أسأل الله لشيخنا عيسى بن عبدالله السعدي الغامدي الثواب الجزيل، والأجر العميم، وأن يحفظه بحفظه، ويبارك له في علمه وعمله وكلِّ شأنه، كما أسأله أن يتغمَّد شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب برحمته وفضله، وأن يجزل له المثوبة والأجر على جهوده ومساعيه في نصرة التوحيد والسُّنة.





كتاب التوحيد[١]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦][٢].

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦][٣].

---

(١) لم يضع المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنواناً للباب الأول إلا أن المفهوم من استدلاله ومسائله وشروحه أنه عن أهمية التوحيد، والتوحيد المقصود إنما هو توحيد الألوهية؛ إذ هو موضوع الكتاب، وقد كشف عن أهميته من جهات.

(٢) **الأول:** أن توحيد الألوهية هو الحكمة الشرعية من خلق الثقلين، فقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ يعني: ليفردوني بالعبادة أي: إخلاص العبادة لله وحده والبراءة من الشرك وأهله، فأهميته تظهر من جهة أن الثقلين إنما خلقوا لأجله، وهذا يدل علىٰ عدد من الأمور:

١. أن الحكمة الشرعية تختلف من الحكمة القدرية المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩] فخلقهم للعبادة في سورة الذاريات هي: الحكمة الشرعية، وخلقهم للاختلاف في سورة هود هي:الحكمة القدرية.

٢. أن توحيد الربوبية مع أنه أصل مطلوب شرعا ومتحقق فطرةً إلا أنه لا يكفي وحده حتىٰ يحقق لازمه وثمرته، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] فاستدل بتوحيد الربوبية علىٰ وجوب إخلاص العبادة لله؛ ولهذا قال أهل العلم: توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

٣. أن العبادة حيث وردت فالمراد بها التوحيد، فمن لم يأت به فليس بعابد لله ولو كثرت صلاته وصيامه.

(٣) **الثاني:** أن الله إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب لهذا التوحيد، وقد دلت الآية علىٰ بيان الحكمة من إرسال الرسل، وفي هذا دلالة علىٰ عدة أمور:

١. أن أصل دين الأنبياء واحد وإن تعددت الشرائع كما قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: "الأنبياء إخوة لعلات؛ أمهاتهم شتىٰ ودينهم واحد".

٢. أن الرسالات عمت كل أمة كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]؛ ولهذا كان الراجح أن من لم تبلغه دعوة الرسل فإنه يمتحن في عرصات القيامة.

٣. أن التوحيد لابد فيه من نفي وإثبات، وهو نفي العبادة عن غير الله وإثباتها له وحده سبحانه، فالنفي المحض ليس بتوحيد، والإثبات المحض ليس بتوحيد.

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [النساء: ٣٦](١).

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [الأنعام: ١٥١](٢).

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "من أراد أن ينظر إلىٰ وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]".

---

(١) **الثالث**: إن توحيد الألوهية أعظم الواجبات الشرعية وآكد الأوامر الإلهية؛ حيث بدأ آية الحقوق بالأمر بالتوحيد، ولا يبدأ إلا بالأهم، وفي هذا عدة أمور:

١. عظم شأن هذه الحقوق ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩].

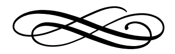
٢. في ختم آية الإسراء بالنهي عن الشرك مزيد تأكيد علىٰ أهمية التوحيد؛ لأن النهي عن الشرك يستلزم الأمر بالتوحيد، وفيه إشارة إلىٰ أن التوحيد أول الأمر وآخره.

٣. أن التوحيد نفي وإثبات قال: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ ولهذا قرر أهل العلم أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة.

٤. أن قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ هو القضاء الشرعي الديني، وهو لا يستلزم وقوع المقضي، بخلاف القضاء الكوني في مثل قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ: ١٤].

(٢) إن الشرك أعظم المحرمات، ولهذا كان أول الوصايا العشر التي اتفقت عليها الملل، وفي قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الآتي تأكيد لذلك لأن الوصية هي: الأمر المقرر المؤكد.

وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: "يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟"، فقلت: الله ورسوله أعلم، قال: "حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا"، فقلت: يا رسول الله، ألا أبشر الناس؟ قال: "لا تبشرهم فيتكلوا"(١) أخرجاه في الصحيحين.



(١) **الرابع**: أن الله عظّم التوحيد فجعله حقه الخالص، وأحق على نفسه ألا يعذب أهل التوحيد، ففي حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عدة أمور:

١. أن الحق بمعنى الواجب وليس من مجاز المشاكلة والمقابلة، وذلك أن المذاهب فيما يجب على الله طرفان ووسط، فقد أوجبت المعتزلة على الله أمورا رأت أن العقل يوجبها وهذا ينافي كمال اختيار الرب، وقابلتهم الأشعرية وقالت لا يجب عليه شيء لأنه مطلق المشيئة تام الاختيار، وتوسط أهل السنة فقالوا: لله أن يوجب على نفسه وهذا لا ينافي كمال الاختيار؛ لأن إيجاب الذات على نفسها لا ينافي الاختيار، وإنما ينافيه إذا صدر من خارج الذات. ثم هو أوجب على نفسه إيجاب فضل وإنعام لا استحقاق ومقابلة.

٢. أن حق العبد لا يناله إلا إذا أدى حق الله وهو أن يعبده ولا يشرك به شيئًا، وهنا إشكال: وهو أنه لم يشر لضرر الذنوب وإنما اقتصر على اجتناب الشرك، وعنه جوابان:

أ) أن قوله: "شيئًا" نكرة في سياق النفي فتعم الشرك كبيره وصغيره، فتدخل الذنوب في العموم لأنها صادرة من هوى، وفيها شعبه من الشرك.

ب) أن هذا النص نص مطلق فيُقيد بنصوص الوعيد التي ذكرت الذنوب.

٣. في الحديث دلالة على جواز كتمان العلم لمصلحة، فمن خشي عليه الاتكال على سعة رحمة الله كتمت عنه نصوص الوعد، ومن خشي عليه القنوط من رحمة الله كتمت عنه نصوص الوعيد؛ ولهذا قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حدثوا الناس بما يعرفون؛ أتريدون يكذب الله ورسوله؟!



باب

فضل التوحيد وما يكفر في الذنوب[1]

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢][2].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسىٰ عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم، وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من العمل" أخرجاه[3].

---

(١) أراد المؤلف من هذا الباب بيان أمرين: كثرة ثواب التوحيد من جهة، وتكفيره للذنوب من جهة أخرىٰ، وقد بين المؤلف مجموع ذلك من جهات.

(٢) **الأول**: إن توحيد العبادة سبب الأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] ويتعلق بالآية أمور:

١. الظلم ثلاثة أنواع: الشرك، وظلم النفس بالذنوب، وظلم العباد، والمراد بالظلم في الآية إنما هو الشرك الأكبر لحديث عبدالله بن مسعود قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ ..﴾ شق ذلك علىٰ أصحاب رسول الله وقالوا: وأينا لا يظلم نفسه؟! فقال عليه السلام: "ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾" وسمىٰ الشرك ظلماً لأنه وضعٌ للعبادة في غير موضعها.

٢. من أتىٰ بالإيمان التام كان له الأمن والاهتداء التام، ومن نقص من إيمانه نقص أمنه، خلافاً للوعيدية الذين يجعلون من نقص إيمانه بكبيرة مخلدًا في النار.

٣. أن الأعمال مهما كثرت فليست سبباً للأمن يوم القيامة حتىٰ يسلم صاحبها من الظلم الأكبر، ويؤكده حديث عائشة عند مسلم قالت: قلت: يا رسول الله، إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعة؟ قال: "لا ينفعه؛ إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين".

٤. الأمن والاهتداء متعلق بالدنيا والآخرة:

فالموحد آمن من عذاب الدنيا والآخرة، وهو مهتد في الدنيا لشرع الله علماً وعملاً، ومهتدٍ للصراط المستقيم في الآخرة.

(٣) **الثاني**: إن التوحيد يفضي بأهله إلىٰ الجنة حتىٰ مع التقصير في العمل كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه =

ولهما في حديث عتبان: "فإن الله حرم على النَّار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله"(١).

= وفيه أمور:

١. وعد الموحد بدخول الجنة لا ينافي نصوص الوعيد؛ لأن دخولها قد يكون ابتداء، وقد يكون بعد تعذيب بقدره كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة التي أثبتت دخول بعض أهل الكبار للنار ثم خروجهم منها.

٢. إن النطق بالشهادة أصل معتبر خلافاً لمن زعم أن الشهادة يمكن أن تتحقق بالإيمان القلبي. وكذلك سائر شروط لا إله إلا الله كما دلت عليها النصوص الأخرى التي تفسر حديث عبادة رضي الله عنه.

٣. الإله هو المعبود محبةً وخوفاً ورجاءً، فكل نص شرعي أثبت الألوهية لله فيتضمن إثبات هذه الأعمال القلبية لدخولها في المفهوم، ومحبة الله أعظم أعمال القلوب؛ لأنها أصل الأعمال كما أن التصديق أصل الأقوال.

وموجب المحبة مشهدان: الإنعام والإحسان من جهة، وكمالات الرب من جهة أخرى، وبهذا فالله سبحانه محبوب لإنعامه وكماله.

٤. بتحقيق هذه القيود ينجو المرء من طرق الضلالة، فبالعلم ينجو من طريق النصارى، وبالعمل ينجو من طريق اليهود، وبالصدق واليقين ينجو من طريق المنافقين، وبالإخلاص ينجو من طريق المشركين.

٥. إن التوحيد لابد فيه من نفي وإثبات، فـ"لا إله" نفي، "وإلا الله" إثبات، وفي حديث عبادة أكد الإثبات بقوله: "وحده"، وأكد النفي بقوله: "لا شريك له".

٦. الشهادة لمحمد بالرسالة لا بد فيها من نطق وعلم وصدق ويقين؛ لأن الشهادة لا تكون كذلك إلا بهذه القيود.

٧. في الشهادة لمحمد وعيسى عليهما السلام بالعبودية والرسالة رد على من أفرط فيهما أو فرط، فاليهود فرطت في عيسى وكذبوه، والنصارى أفرطت فيه وعبدوه، وكذلك الحال مع نبينا من بعض ضلال هذه الأمة.

٨. قوله في عيسى عليه السلام: "وروح منه" إضافة مخلوق لخالقه تشريفاً وتبجيلاً، والمضاف لله إن كان ذاتاً فهو إضافة مخلوق لخالقه، وإن كان معنى فهو إضافة صفة لموصوف، وعليه فلا حجة للنصارى في هذه الإضافة حيث زعموا امتزاج اللاهوت بالناسوت.

٩. الشهادة بحقيقة الجنة والنار يعني الإيمان بوجودهما، وبما في الجنة من نعيم، وبما في النار من عذاب، وأنهما المآل الأبدي للثقلين.

(١) **الثالث**: أن التوحيد إذا اكتمل في القلب حرم صاحبه على النار، فإن المخلص لا يدخل النار أبداً إما:

أ) لأن الإخلاص يمنع من الذنوب فلا تقع منه.

ب) أو لأن قوة الإخلاص تحبط السيئات مهما بلغت، ويدل على الاحتمال الثاني حديث البطاقة، وفيه أن رجلاً يأتي يوم القيامة ومعه تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل مد بصره، بها سيئاته، ثم تخرج بطاقة فيها حسنة وهي أشهد أن لا إله إلا الله، فتطيش بالسجلات، قال في الحديث: "فلا يثقل على اسم الله شيء" رواه ابن ماجه بسند صحيح.

وفي حديث عتبان مسائل:

١. إثبات صفة الوجه لله سبحانه وتعالى.

٢. أن العمل لا ينفع صاحبه إلا إذا كان خالصاً، فالعبرة في الأعمال بحقائقها لا بصورها. =

وعن أبي موسىٰ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن الرسول ﷺ قال: "قال موسىٰ: يا رب، علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به، قال: قل يا موسىٰ: لا إله إلا الله، قال: كل عبادك يقولون هذا، قال: يا موسىٰ، لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله"[(١)] رواه ابن حبان والحاكم وصححه.

وللترمذي وحسنه عن أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "قال الله تعالىٰ: يا ابن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة"[(٢)].



= ٣. أن المراد بالشهادة ترك الشرك كله لا مجرد قولها؛ ولهذا جاء في حديث أنس: "قال الله تعالىٰ: يا ابن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة"، فهو يفسر حديث عتبان كما نص عليه شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب في المسائل.

(١) **الرابع**: إن كلمة التوحيد أفضل الذكر وأفضل الدعاء، وحديث أبي موسىٰ مختلف فيه حيث ضعفه بعض أهل العلم، لكن لمعناه شواهد، ومن ذلك حديث ابن عمر في الأدب المفرد للبخاري وفيه أن نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أوصىٰ ابنه عند وفاته بقوله: "آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة، رجحت بهن لا إله إلا الله" الحديث، كما يشهد له كل حديث ينص علىٰ فضل كلمة التوحيد.

وفي حديث أبي سعيد مسائل:

١. أن من سنة الله ورحمته أن ما اشتدت الحاجة إليه كان أكثر وجوداً كالماء والهواء ولما كانت كلمة التوحيد أهم شيء أجزل الله عليها العطاء الوفير ويسرها.
٢. لا يقتصر علىٰ لفظ "الله" كما يفعل أهل البدع، بل لابد من الذكر بالشهادتين علىٰ الوجه المشروع.
٣. قوله: "وعامرهن غيري" دليل علىٰ صفة العلو.
٤. إثبات صفة الكلام كما كلم الله موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ.
٥. أن العبرة بما في القلب من إخلاص لا بمجرد نطقها؛ لأن النصوص دلت علىٰ أن كثيرًا من الموحدين يدخلون النار للتطهير.

(٢) **الخامس**: إن إخلاص التوحيد يكفر الذنوب مهما كثرت. في حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وفي الحديث مسائل:

١. أن "شيئًا" نكرة في سياق النفي فتفيد العموم، فيدخل الشرك بجميع صوره.
٢. في الحديث تفسير لمعنىٰ الشهادة، وأنها نفي الشرك وتركه لا مجرد قولها باللسان.
٣. فيه دليل علىٰ أن الموحد إذا لقي الله علىٰ كبيرة فإن المغفرة ترجىٰ له، وبخاصة إذا كان مخلصًا في توحيده، وفيه رد علىٰ الخوارج والمعتزلة.



باب
من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب(١)

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠](٢).

---

(١) **تمهيد:**

١. يختلف هذا الباب عن سابقه بأن الباب السابق في فضل التوحيد عمومًا وما يكفر من الذنوب، وأما هذا الباب ففي فضيلة واحدة لا تكون إلا لأعلى الموحدين درجة وهي دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب.

٢. تحقيق التوحيد هو كمال الإخلاص في الأقوال والأفعال، وانجذاب القلب إلى الله حتى لا يبقى فيه تعلق بغير الله، وذكر بعض الشراح أن تحقيقه هو تنقيته من شوائب الشرك والبدع، وصفاؤه من الإصرار على المعصية، ويبدو أن هذا تعريف بمقتضاه ولازمه.

٣. جزم المؤلف بالشهادة بالجنة لمن حقق التوحيد بناء على أن الشهادة بالجنة لها صورتان:

أ) الشهادة بالوصف كالشهادة للمؤمنين والمحسنين، وهذا لا شيء فيه، بل هو مقتضى النصوص.

ب) الشهادة للمعين وفيه لأهل السنة أقوال:

- أنه لا يشهد إلا لمن شهد له النبي ﷺ كالعشرة المبشرين، وهذا قول جمهور أهل السنة.
- أنه لا يشهد إلا للأنبياء.
- أنه يشهد لمن شهد له النبي عليه السلام ولمن شهد له العدول من المسلمين، ويدل لهذا القول أن جنازةً مرت فأثنى الناس عليها خيرًا، ومر جنازة أخرى فأثنى الناس عليها شرًّا وكل مرة يقول الرسول: "وجبت وجبت"، فلما سئل عليه السلام عن ذلك قال: "من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شرًّا وجبت له النار؛ أنتم شهداء الله في الأرض".

الشرح التفصيلي:

قرر المؤلف الصفات التي يتحقق بها التوحيد بثلاث طرق هي:

(٢) **الأولى:** ذكر صفات إمام الموحدين إبراهيم عليه السلام، وهي التي نصت عليها الآية الكريمة:

١. أنه كان أمة أي: قدوة في الخير، وذلك لتكميله الصبر واليقين اللذين تنال بهما الإمامة في الدين.

٢. القنوت أي: دوام الطاعة.

٣. أنه كان حنيفًا، والحنف إما أنه من الاستقامة أو الميل أي: أنه في اللغة من ألفاظ الأضداد التي تطلق على المعنى وضده فإذا حمل على الاستقامة فظاهر، وإذا حمل على الميل فيكون المعنى أنه مائل عن كل ما سوى الله، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: أي أنه فارقهم بالقلب واللسان والبدن.

٤. شكر النعم، ويكون الشكر بالقلب واللسان والجوارح.

وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٩][1].

وعن حصين بن عبدالرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير فقال: أيكم رأىٰ الكوكب الذي انقض البارحة؛ فقلت أنا. ثم قلت: أما أني لم أكن في صلاة، ولكني لدغت قال: فما صنعت؟ قال: ارتقيت، قال: فما حملك علىٰ ذلك، قلت: حديث حدثناه الشعبي، قال وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بُريدة بن الحصيب أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حُمَه، فقال: قد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ قال: "عرضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع إليَّ سواد عظيم فظننت أنه أمتي فقيل لي هذا موسىٰ وقومه فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب"، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء

---

(١) الثانية: ذكر صفات السابقين من المؤمنين، وهي المذكورة في آية الباب، وتمام سياق الآيات قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١]

فوصف المؤمنين السابقين بأربع صفات هي:

١. ﴿مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون من مكر الله وعذابه لان الخوف من سيما الأولياء.

٢. ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: يؤمنون بآياته الشرعية والكونية.

٣. ﴿بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾ أي: لا يشركون شركاً جليًّا ولا خفيًّا، ولا ظاهراً ولا باطناً، ولا أكبر ولا أصغر.

٤. ﴿يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ أي: يعملون الطاعات وهم خائفون أن لا تقبل منهم كما فسر ذلك حديث عائشة عندما قالت لرسول الله: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: "لا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾".

فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه فقال: "هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلىٰ ربهم يتوكلون"، فقام عكاشة بن محصن فقال: "ادع أن الله يجعلني منهم، قال: أنت منهم، فقام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم فقال: سبقك بها عكاشة"[١]..........................

(١) **الثالثة**: النص علىٰ أسباب هذا الوعد المعين كما في حديث الباب ويشتمل علىٰ أربع صفات:

١. لا يسترقون، أي: لا يطلبون من غيرهم أن يرقيهم، وهنا أمران:

أ) ورد في بعض طرق الحديث "لا يُرقُون" أي: لا يرقون غيرهم، وجزم ابن تيمية أنها وهم من الراوي، وفرّق رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين الراقي والمسترقي أن الراقي محسن والمسترقي سائل، ملتفت بقلبه، فتقدح في كمال التوحيد.

ب) أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أمر أن يسترقي من العين، ولا يأمر بمكروه أو مفضول؛ ولهذا حمل ابن رجب الرقية علىٰ الرقية الشركية، فما كان شركًا أو احتمله فهو المؤثر دون غيره.

٢. «**ولا يكتوون**»: أي: يتركون الكي توكلاً علىٰ الله، وورد في ذم الكي أحاديث أخرىٰ غير حديث الباب، منها: "من اكتوىٰ أو استرقىٰ فقد برئ من التوكل" رواه أحمد وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم "٦٠٨١". والظاهر أن كراهيته ليست مطلقة بل مقيدة بحالات معينة:

أ) كالكي قبل البلاء.

ب) الكي المقترن بركون القلب واعتماده علىٰ السبب.

جـ) الكي في الموضع المخوف؛ ولهذا تركت الملائكة السلام علىٰ عمران بن حصين حين اكتوىٰ من البواسير حتىٰ ترك الكي.

وأما إذا تعين الكي طريقًا للشفاء وصاحبه اعتماد قلبي علىٰ الله فإنه لا يؤثر في التوكل؛ ولهذا "كوىٰ النبي ﷺ معاذًا، وكوىٰ سعد بن زرارة من الشوكة، وبعث إلىٰ أبي بن كعب طبيبًا فقطع منه عرقًا ثم كواه عليه، واكتوىٰ ابن عمر من اللقوة، وكوىٰ أبو طلحة أنس بن مالك من ذات الجنب".

٣. «**ولا يتطيرون**»: أي: لا يتشاءمون بمرئي ولا مسموع أو غير ذلك كالأسماء والألفاظ والبقاع والأيام والشهور، والتطير هو: "الانقباض القلبي الذي يستتبع عملاً بموجبه من إمضاء أو رد"، أما مجرد انقباض القلب دون عمل فلا يدخل في حد الطيرة؛ لأن الانقباض بمجرده انفعال، ولا تكليف إلا بفعل، وسيأتي في الكلام عن التطير.

٤. «**وعلىٰ ربهم يتوكلون**» هو: صدق الاعتماد علىٰ الله في طلب مرغوب أو دفع مرهوب بحيث "لا يلتفت القلب إلىٰ المخلوقين في شأن من شؤونه ولا يستشرف إليهم بقلبه".
=

= **والتوكل** هو الحامل علىٰ ترك هذه المكروهات: "الاسترقاء، الاكتواء، التطير"، وأما مباشرة الأسباب المباحة والتداوي علىٰ وجه مشروع فلا يقدح في التوكل كما جاء في الحديث: "يا عباد الله تداووا، فإن الله لـم يضع داء إلا وضع له دواء، غير داء واحد: الهرم" رواه أحمد بسند صحيح، انظر: صحيح الجامع رقم "٧٩٣٤".

٥. قوله في الحديث: "لا رقية إلا من عين أو حمة" دليل علىٰ قوة تأثير الرقية علىٰ المعين وذوات السموم، ولا تخصهما فقط، فالرقية تجوز في غيرهما.

٦. ظهر من صنع سعيد بن جبير عدم التعارض بين الحديث الأول والثاني، فالأول محمول علىٰ الجواز، والثاني علىٰ الأفضلية.

٧. في الحديث دليل علىٰ قلة أتباع الرسل.

٨. فضل أمة الإسلام، ولهذا قال المؤلف في المسائل: "فضل هذه الأمة بالكمية والكيفية" أي: العدد والصفات.

٩. كثرة من يدخل الجنة من أمة محمد بغير حساب، ففي حديث الباب أنهم سبعون ألفـًا، وورد في رواية صحيحة: "فاستزدت ربي، فزادني مع كل ألف سبعين ألفـًا".

١٠. مشروعية طلب الدعاء من أهل الفضل.

١١. قوله لعكاشة: "أنت منهم" وفي رواية: "اللهم اجعله منهم" إجابة دعوته ﷺ؛ ولهذا بقي عكاشة علىٰ إيمانه حتىٰ قتل شهيداً في حروب الردة بيد طليحة الأسدي.

١٢. في قوله: «**سبقك بها عكاشة**»، دليل علىٰ جواز سد الذرائع وجواز استعمال المعاريض.



باب
الخـوف من الشـرك[١]

وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨][٢].

وقال الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وفي الحديث: "أخوف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر، فسئل عنه فقال: الرياء"[٣].

---

(١) **تمهيد:**

١. لمَّا ذكر المؤلف أهمية التوحيد ثم فضل تحقيقه أتبع ذلك بالتحذير من الشرك؛ لأن اجتناب الشرك داخل في حقيقة التوحيد إذ التوحيد نفي وإثبات.

٢. الخوف من الشرك من سنن الأنبياء والأولياء، و منه تنمية الإخلاص، والتعوذ من الشرك وغير ذلك.

٣. أهمل كثير من المسلمين دراسة الشرك في العبادة، فوقع كثير منهم في الشرك، وبعضهم قصره علىٰ الربوبية.

الخوف من الشرك ووجوبه تقرر في النصوص بطرق منها:

(٢) **الأول**: أن من لقي الله مع الشرك فلا رجاء له في المغفرة، فقد خص الشرك بعدم المغفرة، وعلق ما دونه علىٰ المشيئة، فالآية في حق من لقي الله مشركًا؛ لأن التائب لا فرق في حقه بين الشرك وغيره كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ويتعلق بهذا الأصل أمور:

١. تخصيص الشرك بعدم المغفرة دليل علىٰ أنه أعظم الذنوب؛ مما يوجب شدة الخوف منه.

٢. خص الشرك بعدم المغفرة لأسباب منها: تشبيه المخلوق بالخالق في الألوهية، ومنافاته لمقصود الخلق والأمر، فالعالم إنما خلق لعبادة الله، فإذا خلا من عبادته فلا حاجة لوجوده؛ ولهذا تقوم القيامة كما قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: "لا تقوم الساعة حتىٰ لا يقال في الأرض: الله الله" رواه مسلم، وعند أحمد: "حتىٰ لا يقال في الأرض: لا إله إلا الله".

٣. في الآية رد علىٰ الوعيدية الذين قطعوا بنفاذ الوعيد في حق مرتكب الكبيرة.

(٣) **ثانيًا**: إن الأنبياء خافوا الشرك وخوفوا منه، كما في دعاء إبراهيم وأدعية الرسول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وسائر حياته، وفيها أنه كان أكثر دعائه: "يا مقلب القلوب، ثبت قلبي علىٰ دينك" رواه أحمد.

وعن محمود بن لبيد مرفوعـًا: "إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر: الرياء" **ويتعلق بهذا مسائل:**

١. أن من سنة الأنبياء الخوف من الشرك والتخويف منه، وسار عليه السلف، قال إبراهيم النخعي: من يأمن البلاء بعد إبراهيم؟!

=

وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: "من مات وهو يدعو لله ندًّا دخل النار" رواه البخاري، ولمسلم عن جابر أن رسول الله قال: "من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار"(١).



= ٢. خطورة الرياء، فإذا خاف النبي على أصحابه فمن دونهم أولى.

٣. دعاء الخليل معلل بكثرة الافتتان بعبادة الأصنام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦].

٤. استشكل بعض أهل العلم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦] بسبب أن بعض أهل العلم رأى فيها جواز غفران الشرك، وهي تعارض آية الباب الأخرى، وتنوعت طرق الجمع بين الآيتين:

أ) أنه كان جائزًا في شرعهم، وهو جواب غريب؛ لاتفاق شرائع الأنبياء على إبطاله.

ب) أن العصيان مقيد بما دون الشرك، وهو خلاف ظاهر الآية.

جـ) المراد التوفيق للتوبة.

د) أن المراد عدم المعاجلة بعذاب الدنيا.

هـ) أن هذا قبل أن يُعلمه الله بعدم غفران الشرك.

و) ذكر ابن كثير أن الآية ليس فيها أكثر من الرد إلى المشيئة كما في قول عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨].

والجواب العام: أن عدم غفران الشرك أمر محكم قطعي، فلا يترك المحكم للمتشابه.

(١) **ثالثًا**: النار مصير المشرك الأبدي ولو عمل ما عمل؛ لأحاديث الباب السابقة، **ويتعلق بهذا مسائل**:

١. دخول المشرك على عمومه، لا فرق بين الكافر الأصلي والمرتد، ولا الكتابي والوثني.

٢. دخول المشرك في النار أبدي، لا خروج معه بشفاعة أو عفو، كما قال: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]

٣. من لقي الله مشركًا فلا قيمة لأعماله الصالحة؛ لقوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

٤. في تعليق دخول الجنة والنجاة من النار على ترك الشرك تفسير لأحاديث الوعد بالجنة على نطق الشهادتين.

٥. فضل السلامة من الشرك، فمن سلم من الشرك فمآله الجنة ولو عمل الكبائر.

٦. أهل السنة وإن جوزوا العفو عن صاحب الكبيرة إلا أنهم يقطعون بأن بعض أهل الكبائر يدخل النار.



باب
الدعـــاء إلى شهــادة أن لا إلــه إلا اللّه[1]

وقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨][2]

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلىٰ اليمن قال له: "إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله -وفي رواية: "إلىٰ أن يوحدوا الله"- فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليه خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد علىٰ فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم

---

(١) **تمهيد:**

إن الدعوة إلىٰ التوحيد هي دعوة جميع الأنبياء والمرسلين كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال نوح: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال إبراهيم: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٦]، وغيرها.

ويمكن تفصيل أهمية الدعوة للتوحيد من جهات:

(٢) **أولاً**: يتعلق بقوله تعالىٰ ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ ﴾...الآية، أمور:

١. قوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾: تنبيه علىٰ الإخلاص، وأن الدعوة لله لا لأغراض وأهواء أخرىٰ.

٢. قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ بيان لشرط العلم في الدعوة، وهو العلم بالأحكام الشرعية من جهة، والعلم بحال المدعو من جهة.

٣. قوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ بيان أن الهداية بيد الله مهما عمل الداعية.

أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب"[١].

ولهما عن سهل بن سعد أن رسول الله قال يوم خيبر: "لأعطين الراية غداً رجلاً يُحِبُّ الله ورسوله، ويُحِبُّه الله ورسوله، يفتح الله علىٰ يديه"، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها؟ فلما أصبحوا غدوا علىٰ رسول الله ﷺ كلهم يريد أن يعطاها، فقال: "أين علي بن أبي طالب؟"، قالوا: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه فأتىٰ به فبصق في عينيه ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية[٢]، فقال:

---

(١) **ثانيًا**: في حديث معاذ بيان أن الدعوة إلىٰ التوحيد هي أول ما يبدأ به في الدعوة إلىٰ الله،وفيه مسائل:

١. في طرق الحديث ما يفسر الشهادة بتوحيد العبادة، فعند مسلم: "فادعهم إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله" وعند البخاري: "إلىٰ أن يوحدوا الله تعالىٰ" وعند مسلم أيضًا: "أول ما تدعوهم إليه عبادة الله"، فعلم أن الدعوة للشهادة هي توحيد العبادة.
٢. في الحديث دلالة علىٰ أن توحيد العبادة أول واجب، خلافًا للمتكلمين الذين زعموا أن أول واجب هو النظر أو القصد إلىٰ النظر أو إثبات وجود الله أو نحوها، فكما أن الحديث ينص علىٰ أول واجب، فإن معرفة وجوده وربوبيته أمور فطرية لا يحتاج للدعوة إليها إلا من فسدت فطرته بالإلحاد، وهي حالة شاذة.
٣. مشروعية بعث الدعاة واختيار الداعية المناسب.
٤. في إرسال معاذ دلالة علىٰ وجوب الدعوة إما عينيًّا أو كفائيًّا.
٥. مشروعية التدرج فيبدأ بالأهم فالمهم.
٦. اقتصر علىٰ ذكر الصلاة والزكاة لأنهما عبادتان ظاهرتان، دون الصوم لأنه عبادة خفية، ودون الحج الذي لا يجب إلا علىٰ المستطيع.
٧. دعوة معاذ أهل الكتاب لأصول الدين دليل علىٰ قبول خبر الآحاد في العقائد والأحكام علىٰ حد سواء.
٨. قوله: "وتوق كرائم أموالهم" تحذير عن تجاوز الحد في الزكاة أو ما يأخذه الوالي؛ ولهذا قال بعده: "واتق دعوة المظلوم"؛ لأن من أخذ منه أفضل ماله وأكرم حلاله فربما يدعو عليه.

(٢) **ثالثًا**: عظم فضل الدعوة إلىٰ التوحيد كما في حديث إعطاء الراية لعلي في خيبر؛ لأن هداية رجل واحد خير من أنفس الأموال وأكرمها، فكيف بمن اهتدىٰ علىٰ يده الفئام ؟ **ويتعلق بالحديث مسائل**:

١. الفضل المعين في هداية الناس، وهل هو خاص بالهداية لأصل الدين أم يعم الفروع، الأظهر أنه خاص بأصل الدين، بدلالة القرينة الحالية.
٢. قوله: "ادعهم إلىٰ الإسلام" هو الدين كله؛ لأن الإسلام إذا أفرد شمل الظاهر والباطن فيدخل فيه التوحيد بل هو أهمه.

=

"انفذ علىٰ رسلك حتىٰ تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلىٰ الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالىٰ فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم".

يدوكون: أي يخوضون.



=

٣. مشروعية الدعوة إلىٰ الإسلام قبل القتال.

٤. أن الجهاد أعظم وسائل الدعوة إلىٰ الله.

٥. قوله "يحب الله... ويحبه الله " إثبات صفة المحبة من الطرفين، فإن الله يُحَب ويُحِب خلافـًا لمن أنكرها؛ لأن إثباتها يستلزم المناسبة ولا مناسبة بين القديم والمحدث !

والجواب: أن المناسبة إن أريد بها المماثلة والولادة، فهذا ممنوع، وإن أريد بها وجود معنىٰ في المحبوب يحمل علىٰ المحبة فلا إشكال في ذلك، وهو ثابت بالنصوص.

٦. وفيه فضيلة ظاهرة لعلي ﵁، وهي الشهادة بإيمانه ظاهراً وباطنـًا.

٧. قولهم: "يشتكي عينيه" فيه بطلان التعلق بالأولياء، فعلي منهم ومع هذا لم يدفع عنه الضر.

٨. فيها من دلائل النبوة قوله: "يفتح الله علىٰ يده"، فوقع كما أخبر ﵇، ودلائل النبوة كثيرة غيرها.



معنى الشهــادة وشـــروطهــا



باب

تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله[1]

---

(١) **معنىٰ الشهادة:**

الشهادة هي كلمة التوحيد وشعار الإسلام، وأول ما يدخل به المرء في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، وهي عند علماء السلف تدل علىٰ توحيد الألوهية بدلالة المطابقة.

وهنا موقفان:

- مذهب السلف أن لا إله إلا الله هي توحيد الألوهية؛ لأن الإله عندهم هو المعبود.
- مذهب المتكلمين أنها توحيد الربوبية لأن الإله عندهم هو الخالق.

وترتب علىٰ فهم المتكلمين أمور هي:

أ) أن الإقرار بالربوبية هي الغاية من الخلق، فمن أقر بأن الله الخالق الرازق فقد كمّل التوحيد.

ب) أن الشرك إنما هو الشرك في الربوبية.

ج) أن من صرف العبادة لغير الله كمن ذبح لغير الله أو نذر لغير الله أو نحوها فلا يعتبر مشركًا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ولهذا كان من أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها كما يدعو الله، ويصوم لها وينسك لها، ويتقرب إليها ثم يقول: إن هذا ليس بشرك وإنما الشرك إذا اعتقدت أنها هي المدبرة لي، فاذا جعلتها سببًا وواسطة لم أكن مشركًا، ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا شرك" درء التعارض (١/ ٢٢٧- ٢٢٨).

الرد علىٰ المتكلمين:

١. أن الإله في اللغة هو المعبود لا الخالق، والألوهية هي استحقاق العبادة لا القدرة علىٰ الاختراع. قال ابن فارس: "إله، الهمزة واللام والهاء أصل واحد هو التعبد... ويقال: تأله الرجل إذا تعبد" انظر: مقاييس اللغة (١/ ١٢٧).

٢. أن الإقرار بالربوبية لا يكفي وحده، بدليل أن المشركين كانوا مقرين بذلك، ومع هذا لم ينفعهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٣٨].

٣. أن الرسل إنما بعثوا بالدعوة للألوهية كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ففسر دعوتهم في آخر الآية بإفراده بالعبادة.

ويفسر هذا الوجه الآيات والأحاديث التفصيلية في الباب، وتدل عليه كما يلي:

أ) إبطال عبادة المعبودات التي تعبد من دون الله كعبادة النصارىٰ للمسح وكعبادة الملائكة كما قال تعالىٰ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ [الإسراء:٥٧-٥٨].

=

وقول الله تعالىٰ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقوله: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴾ الآية [الزُّخرُف: ٢٦].

وقوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] وفي الصحيح عن النبي ﷺ: "من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حَرُمَ ماله ودمه، وحسابه علىٰ الله" مسلم برقم "٢٣".

وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب.



= ب) إن التحليل والتحريم مما يتعبد به لله كما قال: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١]، ويفسر ذلك حديث عدي بن حاتم وفيه: "أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئـًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئـًا حرموه".

ج) إن من أحب الأنداد كما يحب الله فهو مشرك، فكيف بمن لم يحب إلا الند؟! قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

٤. أن الأحاديث الصحيحة فسرت الشهادة بإفراد الله بالعبادة، فمن ذلك حديث الباب، وهناك عدد كبير من الأحاديث فسرت الشهادة بإفراد الله بالعبادة، واجتناب الشرك والكفر.



شــروط الشهــادة

❁ **تمهــيد:**

جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال لمعاذ وهو رديفه على الرحل: "يا معاذ"، قال: لبيك رسول الله وسعديك قال: "يا معاذ"، قال: لبيك رسول الله وسعديك، قال: "يا معاذ"، قال لبيك رسول الله وسعديك، قال: "ما من عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار"، قال: يا رسول الله، أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا ؟ قال "إذن يتكلوا"، فأخبر بها معاذ عند موته تأثُّماً.

وقد وقع في هذا نزاع بين أهل السنة والمرجئة:

فذهب المرجئة إلى أن هذا سبب كافٍ بمجرده، وأن مجرد قول: لا إله إلا الله يكفي للنجاة ولو لم يكن عمل.

وذهب أهل السنة إلى أنَّ هذا الحديث يفهم مع الأحاديث الأخرى؛ ليخرج المسلم من مجموعها بالشروط والأسباب المحصلة لدخول الجنة والنجاة من النار، وقد تنوعت عبارات السلف في بيان أن لا إله إلا الله لابد لها من اشتراطات أخرى.

قال الحسن البصري للفرزدق وهو يدفن زوجته: "ما أعددت لهذا اليوم؟" قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة! قال الحسن: "نعم العدة، لكن للا إله إلا الله شروطاً، فإياك وقذف المحصنات".

وقيل لوهب بن منبه: أليس مفتاح الجنة "لا إله إلا الله"؟ قال: بلى، ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك.

شـروط لا إلـه إلا الله:

للعلماء في ذكر شروط لا إله إلا الله طريقتان: مجملة ومفصلة.

أ) **الطريقـة المجملـة**: أنهـا مشـروطة بالإتيـان بـالفرائض واجتنـاب الكبـائر، أو هـي مشروطة بالعلم بمعناها والعمل بمقتضاها ظاهراً وباطنـاً.

ب) **الطريقة المفصلة**: وهي انتـزاع شـروطها مـن الأحاديـث بطريقـة حمـل المطلـق علىٰ المقيد، حيث إن الأحاديـث التـي أطلقـت أن مـن قـال: لا إلـه إلا الله دخـل الجنة قيدتها أحاديث أخرىٰ، وهذه القيود هي شروطها التفصيلية، وهي:

(١) العلم بمعناهـا، كمـا في حـديث مسـلم: "مـن مـات وهـو يعلـم أنـه لا إلـه إلا الله دخل الجنة". ومعناها: لا معبود بحق إلا الله، ولـيس معناهـا إفـراد الله بـالخلق كما يقول المتكلمون!

(٢) اليقين بما دلت عليه، فعند مسلم من حديث أبـي هريـرة: "مـن لقيـت مـن وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنـاً بها قلبه فبشره بالجنة".

(٣) الصدق في قولها، فعند البخاري من حديث أنس: "ما من أحـد يشـهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقـاً من قلبه إلا حرمه الله علىٰ النار".

(٤) الإخلاص، روىٰ البخـاري عـن عتبـان بـن مالـك قـال رسـول الله: "فـإن الله قـد حرم علىٰ النار من قال: لا إلـه إلا الله يبتغـي بـذلك وجـه الله". والإخـلاص أن يخلو عمل قائلها من الشرك الجلي والخفي.

(٥) المحبة، قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] وهذا شرط عظيم يمكن أن يستدل له بجميع نصوص

الشهادة؛ لأن الإله مشتق من التأله، والتأله هو أعظم مراتب المحبة وأعلاها.

(٦) القبول والانقياد بمعنىٰ الإذعان باطناً وظاهراً لما دلَّت عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦].

۞ براهـين التوحـيد:

القرآن الكريم -عند علماء السلف- مشتمل علىٰ مسائل الدين ودلائله، ومن أهم الدلائل: البراهين العقلية الدالة علىٰ هذا المطلب، وهي أربعة أنواع:

الأول: الاستدلال بتوحيد الربوبية علىٰ الألوهية، ومعناه: أن إفراد الله سبحانه بالربوبية يستلزم إفراده بالعبادة، فإذا كان الله متفرداً بالخلق والإنعام وجلب النفع ودفع الضر والملك والغنىٰ الذاتي فهو المستحق للعبادة، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣]، وقال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٠-٦٤].

الثاني: الاستدلال بتوحيد الصفات على توحيد العبادة، فتفرد الله بصفات الكمال والجلال والجمال يستلزم تعلق القلب به محبة وخوفاً ورجاءً والإذعان بذلك ظاهراً وباطناً، وبهذا فذكر الصفات يستلزم الخضوع بالألوهية سواء صرحت النصوص بلازمها أم ذكرتها مجردة.

فمن ذكرها مجردة قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨].

وأما ذكر لازمها فمن أمثلته قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

الثالث: الاستدلال بأوصاف المخلوقات على التوحيد، فكل واحد من المخلوقات موصوف بالحدوث والعجز والفقر، وهي صفات نقص تستلزم أمرين: بطلان ألوهيتهم من جهة، كما تستلزم تفرد الله بالألوهية من جهة أخرى، وقد تم تقرير هذا الاستدلال بطرق:

(١) أن كل ما يعبد من دون الله مخلوق مربوب، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠].

(٢) أن كل ما يدعى من دون الله محتاج لله، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

(٣) أن كل ما يعبد من دون الله متجرد من معاني الربوبية ومقتضياتها، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ

لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣].

ومن عجيب أمر هذه الآية الكريمة أنها أبطلت جميع الطرق التي لو وجدت لساغ الشرك، حيث قررت أن المعبودات من دون الله لا يملكون مثقال ذرة، ثم لم يشاركوا في ربوبيته بشيء، ثم لم يعاونوا و يساعدوا، وحتىٰ الشفاعة فليس لهم الحق فيها، وإنما تحصل لمن أذن له الله.

الرابع: الاستدلال علىٰ التوحيد بضرب الأمثال في المعاني؛ لأن الأمثال توضح المعنىٰ، إما بتصوير المعقول في صورة المحسوس، وإما بتصوير أحد المحسوسين في صورة أظهرهما ومن هذه الأمثلة:

(١) قوله تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٧٥] فللأوثان مثل السوء، ولله المثل الأعلىٰ.

(٢) وقوله تعالىٰ: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ٧٦] فالقادر علىٰ الحق قولاً وفعلاً لا يماثل الأبكم العاجز.

(٣) وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

(٤) وقوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

(٥) وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].





العبـادة والاستعانـة

العبادة في اللغة تدل على الذل مع الحب، فمن أحببته ولم تذل له لم تعبده، ومن ذللت له ولم تحبه لم تعبده، حتى يجتمع الحب والذل.

وأما في الاصطلاح فالعبادة تأتي مفردة، وتأتي مقرونة بما هو أخص منها.

العبادة حال الإفراد:

فمن أمثلتها حال الإفراد قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

وفي هذه الحالة "الإفراد" يتم تعريف العبادة بأنها: "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة" مما يعني أنها تشمل الدين كله.

وتحقيق العبادة بمعناها الشامل إنما يكون باجتماع أصلين:

(١) ألا يعبد إلا الله، وهي مقتضى لا إله إلا الله.

(٢) أن لا يعبد إلا بما شرعه الرسول ﷺ وهذا تحقيق أن محمداً رسول الله.

فالأول هو شرط الإخلاص، والثاني هو شرط المتابعة، فلا تقبل العبادة إلا إذا توفر لها شرط الإخلاص والمتابعة.

العبادة حال الاقتران:

إن لفظ العبادة يقترن بلفظ آخر كلفظ التقوىٰ وكلفظ الطاعة وكلفظ التوكل، مما يعني أن للعبادة معنىٰ آخر غير معناها حال الإفراد، ومن أمثلته قوله تعالىٰ: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦]، فقرن العبادة بالتقوىٰ. وكقوله تعالىٰ: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣]، فقرن العبادة بالتقوىٰ وبالطاعة، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

وهذا علىٰ التحقيق من باب عطف الخاص علىٰ العام لمزية في الخاص.

اقتران التوكل بالعبادة:

كثر في نصوص الوحي اقتران التوكل بالعبادة كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورىٰ: ١٠]، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. وهنا تكون العبادة بمعنىٰ مجرد الإنابة والطاعة ويكون التوكل بمعنىٰ الاستعانة.

وقد قيل: أنزل الله مئة كتاب وأربعة كتب، جَمَعَ معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، ثم جمع معاني هذه الكتب في القرآن، ثم جمع معاني القرآن في المفصل، ثم جمع المفصل في الفاتحة، ثم جمع الفاتحة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥](١).

قال ابن القيم: "التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة، فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة"(٢).

---

(١) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (١/ ٧٤).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١١٣).

وقد دلت النصوص على أهمية التوكل من جهات:

(١) أن التوكل شرط في الإيمان كما قال تعالىٰ: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

(٢) أن التوكل من صفات أهل الإيمان الكامل كما قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

(٣) أن الله أمر به في آيات كثيرة، فدل علىٰ أهميته.

(٤) أن الله أخبر عن أنبيائه وأوليائه أن التوكل ملجؤهم وملاذهم.

۞ معنى التوكل:

التوكل على الله عبادة مركبة من مجموع أمرين:

(١) علم القلب، وهو علم المرء بكفاية ربه وكمال قدرته وقيوميته.

(٢) عمل القلب، وهو اعتماد القلب علىٰ الله في جلب المنافع ودفع المضار.

وقد دل علىٰ فضل التوكل عدد من النصوص ومن أهمها:

قوله عليه السلام: "لو أنكم توكلون علىٰ الله تعالىٰ حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وترجع بطاناً"[١].

---

(١) مسند أحمد رقم "٢٠٥" وانظر: صحيح الجامع للألباني "٥٢٥٤".

حكم التوكل على غير الله تعالى:

وهو من أعظم أسباب الهلاك، وهو من حيث حكمه أقسام:

(١) التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، كالرزق والنصر والحفظ، فهذا شرك أكبر.

(٢) التوكل على الأحياء والحاضرين فيما أقدرهم الله عليه من الرزق أو نحوه، فهذا شرك أصغر.

(٣) الوكالة بحيث يوكل غيره في تحصيل ما ينفعه، فإن كانت مع التفات القلب فهي من الشرك الأصغر، وإن كانت مع اعتماد القلب على الله وإنما جعلت سبباً فهي جائزة.

الأسباب والتوكل:

أذنت الشريعة في مباشرة الأسباب مع التوكل، وضابطه اعتماد القلب على الله مع مباشرة الأسباب، والإذن بالأسباب من جهات:

(١) أن النبي ﷺ أعظم المتوكلين ومع هذا عمل بالأسباب، فكان يأخذ الزاد في السفر، واستأجر دليلاً يدل على طريق الهجرة، وكان يدخر لأهله قوت سنة، وكل هذا يدل على الأخذ بالأسباب.

(٢) أن الله حث على الأخذ بالأسباب كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠]،

وقوله: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال عليه السلام: "تداووا عباد الله، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له دواء"[(١)].

شروط العمل بالأسباب:

(١) أن لا يجعل شيئًا سببًا إلا بدليل من الشرع أو التجربة.

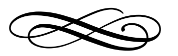
(٢) أن يباشر السبب النافع دون الاعتماد عليه.

(٣) أن يعتقد أن تأثير السبب مشروط بمشيئة الله.

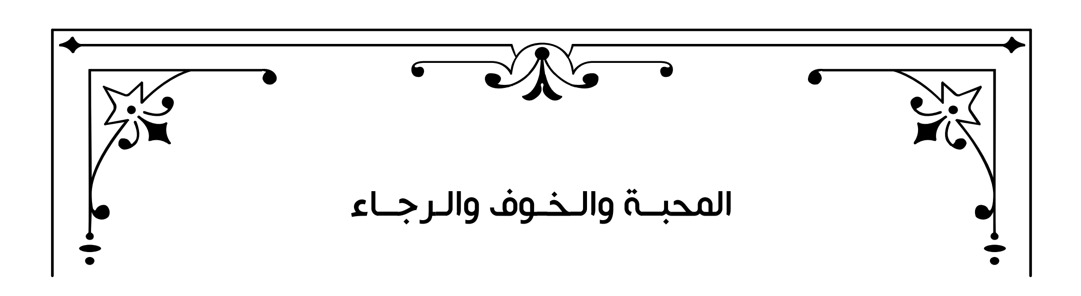
متعلق التوكـل:

التوكل من أوسع العبادات لاتساع متعلقه، كما أنه يقع من الأبرار والفجار.

- فخاصة أوليائه يتوكلون على الله في نصرة دينه وإعلاء كلمته وجهاد أعدائه.
- ودونهم من يتوكَّل على الله في استقامة نفسه وحفظ حاله.
- ودونهم من يتوكل على الله في حصول رزق أو عافية.



(١) مسند أحمد رقم " ١٨٤٥٤" وانظر: صحيح الجامع رقم "٢٩٣٠".



المحبة والخوف والرجاء

الدين قول وعمل، والتصديق أصل الأقوال، والمحبة أصل الأعمال، والمحبة التي يتعين تعلقها بالله تعالىٰ هي المحبة الخاصة، وهي المستلزمة للذل والخضوع، وتسمىٰ محبة التأله. كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومحبة الله سبحانه تستلزم محبة كل ما يحبه الله من الأشخاص والأعمال والأقوال والأماكن، **ويدخل في ذلك أصول عظيمة منها:**

(١) محبة الرسول ﷺ كما قال عليه السلام: "لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين".

(٢) موالاة المؤمنين كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]؛ ولهذا جاءت النصوص تأمر المؤمن بمحبة بعضهم بعضاً ومناصرتهم والتودد لهم وزيارة مريضهم وإغاثة ملهوفهم وإكرامهم وتشميت عاطسهم، وكل صور المحبة وأسباب النصرة، وأعظمها تعاونهم لأجل نشر الدين ونصرته.

أسباب تقوي محبة الله:

(١) قراءة القرآن.

(٢) التقرب لله بالنوافل بعد الفرائض.

(٣) دوام ذكره علىٰ كل حال باللسان والقلب والعمل والحال.

(٤) إيثار محابه -سبحانه- علىٰ محابك عند غلبة الهوىٰ.

(٥) مطالعة القلب لأسمائه وصفاته.

(٦) مشاهدة بره وإحسانه وآلائه.

(٧) انكسار القلب بين يدي الله، وهو من أعجبها.

(٨) الخلوة وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كتابه.

(٩) مجالسة المحبين الصادقين، فإن من يجالس المؤمنين المحبين لربهم يهتدي بهم.

(١٠) مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله سبحانه.

ثمرات محبة الله سبحانه:

(١) الفوز بمحبته لك كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

(٢) معية الله وحفظه ونصره.

(٣) ذوق حلاوة الإيمان.

(٤) دفاع الله عن عبده وتسديده في سمعه وبصره وفعله.

(٥) محبة الملأ الأعلىٰ ووضع القبول في الأرض.

الخوف من الله:

الخوف من الله من أعظم أعمال القلوب وأجلها، وهي من أعظم العبادات كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]

والخوف المحمود ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك فهو اليأس والقنوط.

الرجاء:

وهو أن يرجو الله ويتشوف لفضله كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ٢١٨]،

والمحمود منه نوعان:

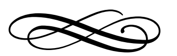
- **الأول**: أن يطيع الله ويرجو ثوابه وإكرامه.
- **والثاني**: أن يعصي الله فيتوب، ثم يرجو غفرانه ومغفرته.

وأما المذموم فهو أن يرجو رحمة الله وفضله بينما هو مقيم على المعاصي، وهذا ربما وصل إلى الأمن من مكر الله كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

والمحبة والخوف والرجاء أساس كل عبادة، وقد جمع الله بينها في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

قال ابن القيم: "ابتغاء الوسيلة إليه: طلب القرب منه بالعبودية والمحبة، فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه: الحب، والخوف، والرجاء"[١].

وقد استحب السلف أن يقوّي حال الصحة جانب الخوف؛ لأن الصحة والشباب مظنة التهوك في المعاصي، ويغلّب حال الضعف والخروج من الدنيا جانب الرجاء؛ لأن لحظة الخروج من الدنيا مظنة القنوط واليأس، ودليل ذلك ما رواه مسلم أنه عليه السلام قال: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه"[٢].



(١) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣٥).
(٢) صحيح مسلم (٢٨٧٧).



الصـبر والشكـر

الصبر والشكر أصلان عظيمان من أصول التوحيد والإيمان، وقد جاء عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: "الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر". **وهذا لاعتبارات أهمها:**

- أن الإيمان فعل مأمور وهو الشكر، أو ترك محظور وهو الصبر، فاجتمع فيهما الإيمان.
- أن الإيمان رغبة ورهبة، والرغبة تستوجب الشكر، والرهبة تستوجب الصبر.

وأما ما سبق من أن الدين هو مجموع التوكل والإنابة فباعتبار الغاية والوسيلة، فالغاية هي الإنابة، والوسيلة الموصلة لها هي التوكل، بينما الصبر والشكر فالاعتبارات السابقة.

وقد اختلف العلماء في التفضيل بين الصبر والشكر، أيهما أفضل؟

- فقال قوم: إن الصبر أفضل؛ لأن النصوص الآمرة به أكثر، كما جعل أجره بغير حساب.
- وفضل آخرون الشكر؛ لأنه مقصود لذاته، بينما الصبر مراد لغيره.

والقول الثالث: أنهما سواء، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت "، وهذا باعتبار صورتين:

الأولىٰ: أن الصبر والشكر سواء، بسبب أن كل واحد لا ينفك عن الآخر كما في المفاضلة بين الشرب والأكل.

الثانية: أنهما سواء باعتبار أن كل واحد منهما في موضعه أفضل.

معنى الصبر:

"حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي، والجوارح عن لطم الخدود".

وهذا التعريف إنما يصلح للصبر علىٰ الأقدار، أما الصبر عن المعاصي والصبر علىٰ الطاعات فلا يدخل فيه، وأوسع تعريف:

"حبس النفس عن الجزع من الأقدار، وحبسها علىٰ أداء الطاعة وترك المعصية ".

ومقام الصبر يدخل في متعلقات كثيرة منها:

- الصبر عن الشهوة، يسمىٰ عفة.
- الصبر علىٰ فضول العيش: زهد.
- الصبر عن داعي الغضب: حلم.
- الصبر عن داعي العجلة: ثبات.
- الصبر عن داعي الإمساك: جود.

وأما أنواع الصبر فثلاثة:

(١) الصبر علىٰ الطاعة حتىٰ يؤديها.

(٢) الصبر عن المعصية حتىٰ لا يقع فيها.

(٣) الصبر علىٰ الأقدار حتىٰ لا يتسخطها.

فضل الصبر:

ذكر الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً، وبان فضله من جهات هي:

١	"الأمر به	٢	النهي عن ضده
٣	الثناء علىٰ أهله	٤	محبة الله للصابرين
٥	معيته لهم	٦	أخبار الله أن الصبر خير لأصحابه
٧	الجزاء بأحسن الأعمال	٨	إطلاق البشرىٰ
٩	ضمان النصر والمدد للصابرين	١٠	الصابرون هم أهل العزائم
١١	لا ينال الجزاء إلا أهل الصبر	١٢	لا ينتفع بالآيات إلا أهل الصبر
١٣	الفوز لا يكون إلا بسبب الصبر	١٤	أنه يورث صاحبه درجة الإمامة
١٥	اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان كلها "[١].		

قوادح الصبر:

(١) النياحة علىٰ الميت كما قال عليه السلام: "اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة علىٰ الميت"[٢]. وأما ما جاء من أن الميت يعذب ببكاء الحي، فهو مشكل! إذ كيف يؤاخذ بخطأ غيره؟!

فالجواب عنه:

أن البكاء نوعان: نوع فيه نواح، فهذا يؤذي الميت، ونوع هو ذرف الدموع رحمةً وشفقة، فهذا لا شيء فيه.

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٥٣- ١٥٥) مختصرة.
(٢) مسلم رقم "١٢١".

(٢) ضرب الخدود وشق الجيوب كما في الحديث: "ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوىٰ الجاهلية"(١).

(٣) سخط المقدور وهو كراهية المقدور وعدم الرضا به، كما قال ﷺ: "فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط"(٢).

(٤) الشكوىٰ للخلق كما قال تعالىٰ عن يعقوب: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ [يوسف: ١٨]، والصبر الجميل هو الذي لا شكوىٰ فيه؛ ولهذا كان من هدىٰ السلف كتمان المصائب، ويخرج من الشكوىٰ المذمومة صورتان:

أ. ذكر الوجع علىٰ وجه الإخبار أو الاسترشاد.

ب. الأنين الذي يخرج للاستراحة لا للشكوىٰ.

۞ معنى الشكـــر:

أصل الشكر من النماء والزيادة، يقال: شكرت الدابة إذا سمنت.

وشرعـًا: هو ظهور أثر النعمة علىٰ لسان العبد بالثناء، وعلىٰ قلبه بالاعتراف والمحبة، وعلىٰ جوارحه بالانقياد.

۞ أركـان الشكــر:

يقوم الشرك على أركان هي:

(١) اعتراف العبد بنعمة الله عليه.

(٢) الثناء علىٰ الله بها.

(٣) الاستعانة بها علىٰ مرضاة الله.

---

(١) مسلم رقم " ١٥٦".

(٢) الترمذي رقم "٢٣٩٦" وانظر: صحيح الجامع للألباني رقم "٢١١٠".

وقد ذم الله من جحد نعمه أو نسبها إلى غيره في نصوص كثيرة منها:

(١) قوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٣].

(٢) وقوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ [فصلت: ٥٠] ففي قوله: ﴿هَٰذَا لِى﴾ قال ابن عباس: يريد من عندي، وقال مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به.

(٣) وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨] قال قتادة: على علم بوجوه المكاسب.

(٤) وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠].

فالشرك هنا هو شرك التسمية بأن يُعبّد الغلام لغير الله، فيسميه: عبد الحارث أو عبد الكعبة أو عبد الرسول أو عبد علي أو عبد الحسين أو غير ذلك، وهو مناف لشكر الله، حيث إن من شُكرهِ سبحانه أن يُعبَّد الجميع له دون سواه.

وقد اختلف الشراح في معنى الآية على قولين:

أ. أن المراد بذلك آدم وحواء كما جزم به في تيسير العزيز الحميد.

ب. أن المراد إنما هم المشركون من ذريتهما كما جزم به الشيخ ابن عثيمين في القول المفيد، وهذا هو الأظهر والله أعلم.

قال ابن القيم: "النفس الواحدة وزوجها آدم وحواء، واللذان جعلا له شركاء فيما آتاهما المشركون من أولادهما، ولا يلتفت إلىٰ غير ذلك مما قيل: إن آدم و حواء كانا لا يعيش لهما ولد، فأتاهما إبليس، فقال: إن أحببتما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث، ففعلا؛ فإن الله سبحانه اجتباه و هداه فلم يكن يشرك به بعد ذلك"[١].

(٥) روىٰ مسلم عن زيد بن خالد الجهني قال: صلىٰ بنا رسول الله صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل علىٰ الناس و قال: "هل تدرون ماذا قال ربكم ؟"، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: " قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا و كذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب".

فنسبة المطر إلىٰ منازل القمر من كفر النعمة، وبين شيخ السلام ابن تيمية أن من ذلك قولهم: "كانت الريح طيبة والملاح حاذقا"، فهو ينسب النعمة إلىٰ غير الله.

(٦) روىٰ مسلم عن أبي هريرة ﵁، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمىٰ، فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكا، فأتىٰ الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه قذره، وأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل -أو قال: البقر، شك إسحاق- إلا أن الأبرص أو الأقرع قال أحدهما: الإبل، وقال الآخر: البقر، قال: فأعطي ناقة عشراء، فقال: بارك الله لك فيها، قال: فأتىٰ الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟

(١) روضة المحبين "ص: ٢٨٩".

قال: شعر حسن ويذهب عني هذا الذي قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه، وأعطي شعرا حسنا، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر، فأعطي بقرة حاملا، فقال: بارك الله لك فيها، قال: فأتىٰ الأعمىٰ، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري، فأبصر به الناس، قال: فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطي شاة والدا، فأنتج هذان وولد هذا، قال: فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم، قال: ثم إنه أتىٰ الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ عليه في سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس؟ فقيرا فأعطاك الله؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر، فقال: إن كنت كاذبا، فصيرك الله إلىٰ ما كنت، قال: وأتىٰ الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد علىٰ هذا، فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلىٰ ما كنت، قال: وأتىٰ الأعمىٰ في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله، ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمىٰ فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم شيئا أخذته لله، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي عنك وسخط علىٰ صاحبيك".

فجحد الأبرص والأقرع نعمة الله، فسخط الله عليهما، وأقر الأعمىٰ بنعمة الله وشكر لربه، فرضي الله عنه، وفي هذه القصة عبر عظيمة منها:

أ. أن الرسول ﷺ يقص عن بني إسرائيل للعظة والعبرة، وهو من أدلة من قال: إن شرع من قبلنا شرع لنا.

ب. بيان قدرة الله بإبراء هؤلاء.

ج. أن الملائكة يتشكلون.

د. أن الملائكة أجسام وليسوا أرواحا ولا قوىٰ ولا معاني.

ه. أن قوله: "ورثناه كابرا عن كابر" آكد في بيان نعمة الله عليهم، حيث يعني أنه سبحانه أنعم بها عليهم وعلىٰ آبائهم وليس عليهم فقط، ومع هذا نسبوها لغيره.

و. أن الإنسان لا يلزمه الرضا بالمقضي لأنهم طلبوا تغيير أحوالهم.

ز. جواز الدعاء المعلق لقوله: "إن كنت كاذبا فصيرك الله...".

ح. جواز التنزل مع الخصم، فمع أن الملك يعلم بكذبه إلا أنه تنزل معه.

ط. أن بركة الله لا نهاية لها، ولهذا كان لكل واحد وادٍ مما طلب.

ي. هل دعاء الملائكة مستجاب ؟

الظاهر أنها قضية عين؛ لأن الملك يؤمِّن علىٰ دعاء الرجل لأخيه ولا يقع كثير منه.

ك. شكر كل نعمة بحسبها، فشكر المال بالصدقة، وشكر العلم ببذله.

ل. جواز التمثيل للمصلحة.

م. أن البلاء قد يكون عاما وظاهرا.

ن. فضيلة الورع والزهد؛ لأن الأعمىٰ كان زاهدا، فجرَّه زهده إلىٰ ما يحمد.

س. أن من صفات الله الرضا و السخط والإرادة.

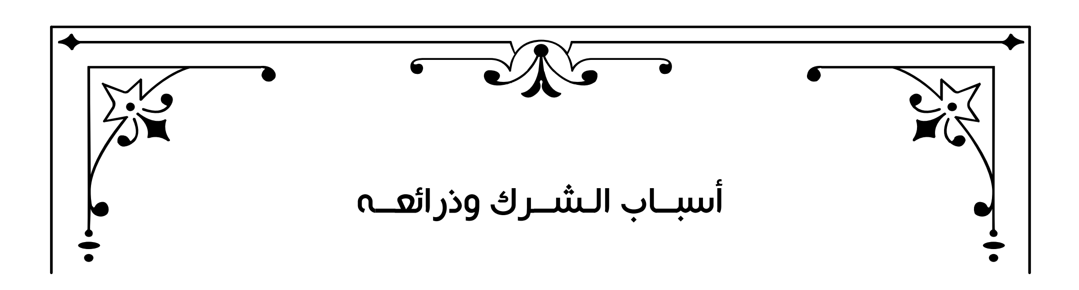
ع. أن الصحبة تطلق على المشاكلة لقوله: "وسخط على صاحبيك"، فالصاحب هنا من يشبه حاله ويشاكله.

ف. اختبار الله بالنعم.

ص. أن التذكير قد يكون بالأقوال والأفعال والهيئات.

ق. أن الإنسان يجوز أن ينسب لنفسه ما لم يقع لأجل الاختبار؛ لقول الملك: إنه فقير وابن سبيل.





أسباب الشرك وذرائعه

إفراد الله بالعبادة هو مقتضىٰ الفطرة والعقل والنقل، وكثير من الناس لا يذعنون لمقتضىٰ أدلة التوحيد؛ لأسباب تصدهم عن الحق منها:

۞ أولاً: الجهل بصفة الشفاعة عند الله:

الشفاعة من الشفع الذي هو ضد الوتر.

واصطلاحاً: الوساطة في حصول نفع أَو دفع ضر.

وقد ظن بعض الناس أن الشفاعة عند الخالق من جنس الشفاعة عند المخلوق، فكما يستشفع بالوجهاء عند الملوك فيستشفع بالأنبياء والأولياء عند الله سبحانه.

وتطور الخلل حتىٰ جر إلىٰ دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، و صارت ذريعة للاستغاثة بالصالحين في الشدائد والنوائب، وهذا باطل لعدد من الأمور التي دلت عليها النصوص منها:

(١) أن الشفاعة ملك لله وحده كما قال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٤٤ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٣-٤٤] أي: أنها ملك لله وحده، فمن طلبها من غيره فقد طلبها ممن لا يملكها.

(٢) أن الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند الخلق؛ لأنها لا تكون عند الله إلا بإذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع له كما قال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ [طه: ١٠٩].

(٣) الشفاعة عند الله إنما تُنال بالتوحيد لحديث أبي هريرة في البخاري أنه قال: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: "لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أول منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه". فنصَّ على أنها لأهل التوحيد، ولهذا فمن استشفع عند الله بمخلوق فقد أتى بمانع الشفاعة لا بسببها.

(٤) أن طلب الشفاعة من المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله من سنة المشركين مع شفعائهم، لا من سنة الحنفاء مع أوليائهم، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، فكذبهم وكفرهم، ونفى هذه الشفاعة وأبطلها.

۞ **ثانياً: الخلط بين هداية التوفيق وهداية البيان:**

يخطئ كثير من الناس في فهم قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ويظن أن هذا يعم كل هداية؛ ولهذا يسألون النبي ويدعونه أن يهديهم هداية القلوب، وهذا باطل، فإن الهداية قسمان:

القسم الأول: هداية التوفيق وهي هداية القلوب، وهذه لا يملكها إلا الله، وهي المقصودة في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

والقسم الثاني: هداية الدعوة والبيان وهي: "بيان الحق بأدلته والترغيب في قبوله، والترهيب من تركه"، وهي مما يستطيعه الأنبياء والمصلحون، بل هي

وظيفتهم التي كلفهم الله بها، وهي المقصودة بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

وقد جاء في الصحيح عن سعيد بن المسيب عن أبيه: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله فوجد عنده أبا جهل وابن أبي أمية فقال: "أي عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله". فقال أبو جهل وابن أبي أمية: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟! فلم يزل رسول الله يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة، حتىٰ قال أبو طالب آخر ما كلمهم: علىٰ ملة عبدالمطلب، وأبىٰ أن يقول: لا اله إلا الله. قال رسول الله: "والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك". فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦].

وفي القصة أمور:

(١) أن التقليد من أعظم الشبهات في الصد عن الحق، ومن أخطر التقليد تقليد الآباء والأجداد كما قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب في المسائل: "التأمل في كبر هذه الشبهة...".

(٢) تفسير الشهادة بتوحيد العبادة؛ لأنهما قالا: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟! فعلم أن مقتضىٰ الشهادة العبادة لله وحده وترك ملة الشرك لا مجرد الإقرار بالربوبية.

(٣) صحة مذهب السلف في تفسير الإيمان وبطلان تفسيره بالمعرفة؛ إذ لو كان الإيمان مجرد المعرفة كما يقول أهل الإرجاء لكان عبدالمطلب مؤمناً؛ لأنه كان يقول:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

(٤) في قوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] دلالة على أن الله يختص بهدايته من يشاء لحكمة بالغة لا تدركها العقول.

(٥) في القصة أن المحبة الطبيعية قد تتعلق بالمشرك ولا تنافي الإيمان.

(٦) أن رابطة التوحيد هي أقوى الروابط، وسائر الروابط فرع لها، فلا تنفع رابطة النسب مع عدم التوحيد.

(٧) أن الإيمان نافع مقبول حتى في مرض الموت ما لم يصل المحتضر للمعاينة كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]، وعند أحمد: "إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر". وبناء على هذا فقوله في الحديث: "لما حضرت أبا طالب الوفاة" يعني مقدماتها وعلاماتها، و لم تصل إلى مرحلة المعاينة التي لا ينفع معها إيمان.

ثالثاً: الغلو في الأنبياء والصالحين:

الغلو هو الإفراط في التعظيم بالقول والاعتقاد، وهو سبب أول شرك وقع في الأرض، ففي الصحيح عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، قال: "هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسيَ العلم عبدت".

وقد وقع هذا عند المسلمين، وتفشى في بعضهم حتى عبدت القبور والأضرحة، وما يحصل من العبادة عند القبور مراتب كما بين ابن تيمية:

- **أبعدها عن الشرع**: أن يسأل الميت حاجته ويستغيث به، وهذا من جنس عبادة الأصنام.
- **الرتبة الثانية**: أن يسأل الله به، وهذا بدعة بالاتفاق.
- **الرتبة الثالثة**: أن يظن أن الدعاء عند القبر مستجاب، وهذا منكر وحرام وبدعة بالاتفاق.

كما أنه لا حجة في بناء القبة علىٰ قبر النبي ﷺ؛ لأن بناءها إنما حدث عام ٦٧٨ من الملك قلاوون الصالحي كما بين الصنعاني وغيره من أهل العلم، فهي مسلك من لا حجة في عمله.

وقد وردت النصوص في النهي عن صور معينة من الغلو لخطرها الخاص، وإلا فإن الغلو في الدين محرم كله، ومن هذه الصور:

(١) تصوير التماثيل، ففي الصحيح عن أم سلمة أنها ذكرت لرسول الله كنيسة رأتها في أرض الحبشة يقال لها: مارية، فذكرت له ما رأت فيها من الصور، فقال عليه السلام: "أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح -أو: الرجل الصالح- بنوا علىٰ قبره مسجدًا، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله".

(٢) اتخاذ القبور مساجد، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها أنه قال عليه السلام في لحظة الاحتضار: "لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" يحذر ما صنعوا. وأول من بدأ بناء المساجد علىٰ القبور الرافضة، ثم انتشر هذا المنكر وشاع.

(٣) البناء علىٰ القبور وإسراجها، فقد روىٰ مسلم أن النبي أرسل علي بن أبي طالب فبعثه: "أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته". كما

نهىٰ ﷺ أن يجصص القبر، وأن يُقعد عليه، وأن يبنىٰ عليه، وقد اختلف العلماء في علة النهي عن البناء علىٰ القبر علىٰ قولين:

- كراهية معاملة القبر الذي هو دار البلىٰ بما ينافي هذا المعنىٰ.
- لأنه يؤدي إلىٰ تعظيمه والشرك عنده، وهذا الراجح.

وما يفعل عند القبور نوعان: مشروع وممنوع:

- **فالمشروع:** هو زيارتها دون شد الرحال لتذكر الآخرة وللدعاء لأهلها بالدعاء المشروع.
- **والممنوع: نوعان:**

أ. شرك أصغر كالتمسح بها وكإسراجها والبناء عليها والغلو في أصحابها بما لا يصل للعبادة.

ب. شرك أكبر كدعاء أهلها والاستغاثة بهم.

(٤) اتخاذ القبور أعيادًا، كما قال ﷺ: "لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم"، واتخاذ القبر عيداً يشمل عدة صور منها:

أ. اعتياد زيارته كمن يعتاد ذلك كل جمعة أو كل شهر أو نحو ذلك من الاعتياد الراتب.

ب. تحري الدعاء عند القبر.

جـ. شد الرحل لمجرد زيارة قبر النبي ﷺ، وهي التي تكلم فيها شيخ الإسلام ابن تيمية، وجرىٰ له بسببها فتنة رضي الله عنه، ونقل الخلاف فيها علىٰ قولين:

- الإباحة كما اختارها الغزالي والمقدسي.
- المنع والتحريم كما هو قول الجمهور، وهو الصحيح.

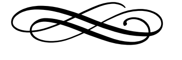
وأما الزعم بأنها مستحبة كما ادعىٰ السبكي فلا قائل به، والإجماع منعقد علىٰ عدم الاستحباب.

وأما دليل المنع والتحريم فلقوله ﷺ: "لا تشد الرحال إلا إلىٰ ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصىٰ".

(٥) الإطراء كما قال ﷺ: "لا تطروني كما أطرت النصارىٰ ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبدالله ورسوله".

(٦) التنطع، فقد روىٰ مسلم عن ابن مسعود أنه قال ﷺ: "هلك المتنطعون" قالها ثلاثـًا.

والتنطع مأخوذ من النطع، وهو الغار الأعلىٰ للفم؛ لأن المتنطع يتكلم بأقصىٰ حلقه، ثم استعمل في كل من تجاوز الحد في أقواله وأفعاله.





شبهــات القبــوريين

القبوريون لقب عرفي يطلق علىٰ كل من غلا في قبور الصالحين حتىٰ بلغ بهم رتبة العبادة أو قارب، وهم كثير من الشيعة والصوفية وبعض العوام، ومن شبهاتهم:

(١) أن الشرك مخصوص بعبادة الأوثان، ودعاءُ الصالحين توسلٌ لا شرك، والرد علىٰ ذلك مما يلي:

أ. أن الشرع بين أن اتخاذ القبور مساجد يصيرها أوثانـًا، قال ﷺ: "اللهم لا تجعل قبري وثنـًا يعبد".

ب. أن الواقع دل علىٰ أن الغلو في القبور يصيرها أوثانـًا كقصة اللات والعزىٰ.

(٢) أن هذه الأمة معصومة من الشرك لحديث: "إن الشيطان أيس أن يعبد في جزيرة العرب" والجواب:

أ. أن الحديث لم ينف وقوع الشرك، بدليل أن أهلها ارتدوا في أول خلافة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما أن المنفي إطباق الشرك وعمومه.

ب. أن عبادة الأوثان وقعت في أهل الكتاب وفيهم من هو في جزيرة العرب، كما أن هذه الآية تستتبع أهل الكتاب.

جـ. أن الأحاديث صرحت بوقوع الشرك في الأمة، ومنها: "لا تقوم الساعة حتىٰ يصطفق أليات نساء دوس حول ذي الخلصة".

(٣) أن توحيد الربوبية هو نفسه توحيد الألوهية، ولأن الرب والإله على معنى واحد، والنصوص إنما علقت الذم والمؤاخذة على الربوبية مثل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. كما جاء في الحديث إنه يسأل في قبره: "من ربك؟"، فالمدار على الربوبية.
والجواب من وجوه:

أ. أن الرب والإله ليسا بمعنى واحد، فالرب بمعنى السيد والمصلح والمالك، والإله بمعنى المعبود، وأما شرعًا فإن لهما معنى حال الإفراد وحال الاقتران، فإذا اقترنا كان الرب بمعنى الخالق والإله بمعنى المعبود، وإذا أفردا كانا بمعنى واحد، والنصوص التي احتجوا بها حال الإفراد تدل على الألوهية والعبادة لا مجرد الملك والخلق والتدبير.

ب. أن الرسل إنما بعثوا بالدعوة للعبادة كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

جـ. أن النصوص الشرعية فرقت بين الربوبية والألوهية، وبينت أن المشركين أقروا بالربوبية دون الإلهية، كما قال تعالى في إقرارهم بالربوبية: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧]، وقال في حالهم في الألوهية: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥].

د. أن المشركين السابقين كانوا يقرون أن الصالحين لا ينفعون ولا يضرون، وإنما تعلقوا بهم ليشفعوا لهم عند الله، كما قال عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣].

رابعاً: التوسل البدعي:

التوسل هو أن يقرن الداعي بدعائه ما يعتقد أنه سبب لإجابة طلبه، فإن كان السبب شرعيا كان التوسل شرعيا، وإن كان السبب بدعيا كان التوسل بدعيا، وأشهر أنواع التوسل أربعة هي:

(١) التوسل بأسماء الله وصفاته.

وهذا أجل نوع وأعلاه، وقد عقد شيخ الإسلام في كتاب التوحيد بابا بعنوان: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الاعراف:١٨٠] لبيان هذا النوع الجليل والرد على من عدل عنه إلى التوسل بالموتى. ودعاء الله بأسمائه وصفاته منتشر في الكتاب و السنة بحيث يعسر تتبع الأدلة والأمثلة.

(٢) التوسل بالإيمان برسوله عليه السلام ومتابعته.

والمقصود بهذا الصنف أنه لا يتوسل إلى رضا الله إلا بالإيمان به، فالإيمان الشرعي هو الوسيلة الموصلة للجنة كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥]

(٣) التوسل بدعاء الرسول أو غيره ممن ترجى إجابته، وهذا على ضربين:

أ. أن يرجو من الرسول الدعاء والشفاعة، فيدعو ويشفع كما طلب منه في الدنيا، ويطلب منه يوم القيامة.

ب. أن يسأل الله بدعاء الوسيلة والشفاعة كما في حديث الأعمى، فإنه طلب من النبي الدعاء والشفاعة، فإن النبي أمره أن يقول: "اللهم شفعه فيّ". ومثل توسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالعباس وقال: "اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا". وهذا لا يجوز إلا بشرطين:

الأول: إيمان الشافع والمشفوع له بالله وتحقيقهم التوحيد.

الثاني: دعاء المتوسل به، وأما من استشفع بميت فإنه لم يحقق هذا الشرط ولم يتحقق منه.

(٤) التوسل بذات الوسيلة، فإن كان نبيًّا أو صالحًا توسل بجاهه أو حقه أو حرمته كأن يقول: أسألك بفلان أو بجاه فلان أو بحق أنبيائك، وهذا النوع هو الشائع مع أنه توسل بدعي، وبطلانه من وجوه:

أ. أن هذا لم يرد به نقل صحيح، وكل ما ورد فيه أحاديث ضعيفة مثل حديث: "اللهم إني أسألك بمحمد نبيك" فهو ضعيف.

ب. أن الصحابة رضي الله عنهم مع حرصهم لم يفعلوه، لا في حياة النبي ﷺ ولا بعد مماته، ولو كان جائزا لم يعدلوا عنه إلىٰ العباس.

جـ. أن قول السائل: بحق فلان راجع إلىٰ معنىٰ الباء:

- إما أن تكون للقسم، فلا يجوز أن يقسم علىٰ الله بمخلوق.
- وإما أن تكون سببية، فإن كان السبب دعاء المتوسل به فجائز، وإن كان بجاهه فلا يجوز؛ لأن الجاه ليس سببا مشروعا للدعاء.

د. أن هذا التوسل قاد كثيرًا من المسلمين إلىٰ الوقوع في الشرك.

خامساً: التعطيل وإنكار القدر:

التعطيل هو نفي صفات الكمال أو بعضها، وقد حدثت بدعة التعطيل في أواخر عصر التابعين، وأول من حفظت عنه هذه البدعة الجعد بن درهم، ثم تفشت في الجهمية والمعتزلة وغيرهم.

والتعطيل من أسباب الشرك؛ لأن العبد محتاج لأن يقصد ربه ويفزع إليه، فإذا نفىٰ المعطل علوه وسمعه وبصره وقوته وغناه وكلامه لم تجد القلوب علىٰ العرش إلهاً تفزع إليه، ولهذا قال ابن القيم في النونية:

واعلم بأن الشرك والتعطيل مذ ... كانا هما لا شك مصطحبان

أبداً فكل معطلٍ هو مشرك ... حتماً وهذا واضح التبيان

وقد أفرد الشيخ محمد بن عبدالوهاب باباً لجحد الأسماء والصفات ضمن كتاب التوحيد نبه فيه لأمرين مهمين:

(١) أن جحود شيء من الأسماء الحسنىٰ يعتبر كفراً، قال تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠] فإن قريشاً لما سمعت النبي يدعو بهذا الاسم أنكرته، فأنزل الله الآية، فعلم أن إنكارهم اسم من أسمائه كفر، لكن عند الحكم علىٰ المعطل لا بد من اعتبار إنكار التكذيب وإنكار التأويل، فيكفر الأول دون الثاني.

(٢) أن نصوص الصفات من العلم الذي يجب نشره في الناس، ولهذا لم يكن إنكاره إلا من الجهمية.

❁ **إنكار القدر:**

وهو وثيق الصلة بالتعطيل، فالقدرية الأولىٰ أنكروا صفة العلم، والقدرية الثانية أنكروا عموم الخلق والمشيئة؛ ولهذا الارتباط قال ابن عباس: "القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر نفىٰ تكذيبُه توحيدَه".

❁ **سادساً: اجتيال الشياطين:**

ففي حديث عياض بن حمار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: "إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً".

والاجتيال هو: الذهاب بالشيء وإزالته عن مكانه وتحويله عن قصده، وهو من أسباب الشرك، وللاجتيال أمثلة منها:

(١) الإيقاع في الشرك أو في طرقه كما حصل مع "ود وسواع ويغوث" في قوم نوح حيث كانوا رجالاً صالحين، فلما ماتوا أوحت الشياطين لأقوامهم أن ضعوا لهم تماثيل... إلخ.

وعمرو بن لحي أخرج الأصنام وبعثها ونشرها في العرب؛ لأنه كان كاهنـًا له رئيٌ من الجن، فأوحىٰ إليه شيطانه بذلك.

(٢) تحسين الشرك لأهله حتىٰ لا يرجعوا عنه، فإن الشياطين ربما خاطبت عُبَّاد القبور ولبَّت لهم بعض شأنهم لتبقيهم في الشرك.

(٣) الإضلال عن الحق بكل سبيل.

۞ **سابعاً: إجمال باقي الأسباب حيث إن للشرك أسبابًا أخرى منها:**

(١) الجهل بما بعث به الرسل.

(٢) الأحاديث المكذوبة.

(٣) الحكايات المروية عن الصالحين وأن فلانـًا استغاث بفلان ففرج عنه.

(٤) الأئمة المضلون مثل أئمة البدع وأئمة القبورية.

(٥) المنامات.

(٦) التبرك الممنوع مثل حمل حجر من الحرم في السفر مما أدىٰ إلىٰ تطور الأمر وظهور الشرك.

(٧) الفرق الضالة، كما فعلت الرافضة بالقبور والمراقد، وكما فعلت الصوفية.





أنــواع الـشــرك الأكـبر

للشرك تقسيمات باعتبارات متعددة، فينقسم باعتبار محله إلىٰ: قلبي وقولي وعملي، وينقسم باعتبار متعلَّقه إلىٰ شرك في الربوبية وشرك في الألوهية وشرك في الأسماء والصفات، وينقسم باعتبار الظهور وعدمه إلىٰ جلي وخفي، وينقسم باعتبار حكمه إلىٰ مخرج من الملة "أكبر" وشرك لا يخرج من الملة "أصغر".

والشرك الأكبر في توحيد العبادة أنواع منها:

أولاً: الشرك في الذبح:

وهو الذبح لغير الله، سواء ذكر اسم المذبوح له أم لم يذكر اسمه، كالذبح للأوثان والمشاهد والكواكب والجن، وقد حذر الشرع منه بطرق متعددة منها:

(١) أن الله تعبدنا بإخلاص النُسك لله كما تعبدنا بإخلاص الصلاة، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، والنسك هو الذبح مطلقاً كما قال سعيد بن جبير، أو الذبح في الحج والعمرة كما قال مجاهد.

(٢) أن النبي ﷺ ابتدأ بلعن من ذبح لغير الله تغليظاً لجرمه، ففي حديث علي بن أبي طالب أنه قال عليه السلام: "لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من سرق منار الأرض" الحديث عند مسلم.

(٣) أن الذبح لغير الله من أسباب دخول النار والخلود فيها، ومنه الرجلان اللذان مرَّا بصنم لا يجوزه أحد حتىٰ يقرب له شيئاً، قال: "فقرب ذباباً فخلَّوا سبيله فدخل النار".

ويشكل على هذا الحديث أن المكره معذور؛ لقوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا ﴾ [النحل: ١٠٦]، فالآية مخالفة لظاهر الحديث، وقد أجاب أهل العلم بأجوبة هي:

أ. منهم من ضعف الحديث بالإرسال وعنعنة الأعمش.

ب. ومنهم من قال: إن العذر إنما يجري في الأقوال دون الأفعال.

جـ. ومنهم من قرر عدم التعارض، فإن هذا الرجل غير مكره أصلاً؛ لأنه شرح صدره بالكفر، قال ابن عثيمين: "ظاهر القصة أن الرجل ذبح بنية التقرب؛ لأن الأصل أن فعلاً بني على طلب أن يكون موافقاً لهذا الطلب"[1].

(٤) أن النبي عليه السلام منع من الذبح في مكان أعد للذبح لغير الله، سدا للذريعة المفضية إلى الشرك و تركا لمشابهة المشركين، فعن ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل على عهد رسول الله أن ينحر إبلاً ببوانة، فأتى النبي فقال: إني نذرت أن أنحر إبلاً ببوانة، فقال النبي عليه السلام: "هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟" قالوا: لا. فقال: "هل كان فيها عيد من أعيادهم؟" قالوا: لا، قال رسول الله: "أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذرٍ في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم". وهذا لا يخص النذر وإنما يشمل كل عبادة بشرط أن تكون صورة الفعلين واحدة.

فلا يذبح لله في مكان كان يذبح فيه لغير الله؛ لأن اتحاد الصورة موقع في اللبس مع عدم المصلحة.

---

(١) القول المفيد (١/ ٢٢٨).

ولهذا قرر أهل العلم أن الصلاة في الكنيسة جائزة لعدم اللبس، مع أن فيها أقوالاً:

- منع الصلاة في الكنيسة مطلقـاً، وهو قول مالك.
- الإذن مطلقـاً، وهو قول بعض أصحاب أحمد.
- إن كان فيها صور فلا يصلي فيها، وإن لم يكن فيها صـور فيصـلي، وهـو القـول الآخر لأصـحاب أحمـد، ودلـت عليـه آثـار الصـحابة رضي الله عنهم، وعللـوا ذلـك بـأن صورة صلاة المسلمين مخالفة لصورة صلاتهم، بخلاف العبادات التي تتشـابه في صورتها مع عباداتهم.

ثانياً: النذر والاستعاذة:

أي: أنه أوجب على نفسه شيئـاً لم يكن واجبـاً بأصل الشرع تعظيمـاً للمنذور له.

والنذر لغير الله قد يكون للأصنام والأوثان والمشاهد والكواكب وله صورتان:

- **الأولى:** أن يعتقد أن المنذور له مجردُ وسيطٍ، فيقول له: يا سيدي، لله عليّ كـذا إن شفى الله مريضي.
- **الثانية:** أن يعتقد أن المنذور له مستقل فيقول: لك كذا إن شفيت مريضي.

والصورة الأولى هي الغالبة حتى على مشركي العرب كما قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨].

وقد استدل العلماء على إبطال شرك النذر بأدلة منها:

(١) قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧]، فمدحها لأنها عبادة، فعلم أن صرفها لغير الله شرك، وغيرها من الآيات التي تعطي نفس الدلالة.

(٢) وفي البخاري عن عائشة قالت: قال النبي ﷺ: "من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصيه". فأمر بالوفاء به، فدل علىٰ أنه عبادة وأن صرفه لغير الله شرك.

وأما الاستعاذة فهي الالتجاء والاعتصام:

وحقيقتُها الهرب من شيء تخافه إلىٰ من يعصمك منه، فالعياذ لدفع الشر، واللياذ لجلب الخير، ومن استعاذ بغير الله فقد أشرك لعدد من الأدلة منها:

(١) قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]. فذكر الله أن مؤمني الجن ذكروا أمورًا كانوا عليها في الجاهلية، منها: استعاذة الإنسان بالجن، وأن الجن استغلت هذا الخوف فزادت في تخويف الإنس ليبقىٰ الإنس علىٰ هذا الشرك.

(٢) قول تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١].

(٣) عند مسلم عن خولة بنت حكيم أن النبي عليه السلام قال: "من نزل منزلاً، فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتىٰ يرحل من منزله ذلك".

ووجه دلالة الحديث أن كلمات الله غير مخلوقة؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك كما قرر شيخ الإسلام في المسائل.

وهذا ليس على إطلاقه؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق تجوز بشروط هي:

(١) أن تكون بحي حاضر فيما يقدر عليه، وإلا فهي شرك.

(٢) عدم ركون القلب للمخلوق المستعاذ به.

(٣) أن يلتزم بالصيغة الشرعية، فإن قال: أعوذ بالله وبك فهو شرك.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلىٰ أن الاستعاذة بالمخلوق شرك مطلقاً، ويرده أحاديث منها قوله عن الفتنة والهروب منها: "ومن وجد فيها ملجأ فليعذ به". وعن أبي مسعود أنه ضرب غلامه فجعل الغلام يقول: أعوذ بالله وهو يضربه، ثم قال: أعوذ برسول الله فتركه، فقال الرسول: "والله، لله أقدر عليك منك عليه"، قال: فأعتقه. والشاهد أنه لم ينكر عليه استعاذته به.

۞ ثالثاً: الدعاء والاستغاثة:

فأما الدعاء فنوعان: دعاء عبادة ودعاء مسألة، ودعاء المسألة هو: طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو دفع ضر.

ودعاء العبادة هي العبادات نفسها كالذكر والقراءة والتسبيح، وهي وإن كانت ليست علىٰ صيغة الطلب إلا أن العابد طالب من حيث المعنىٰ.

وأما الاستغاثة فهي طلب الغوث، وهو إزالة الشدة، والفرق بينها وبين الدعاء أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب، بينما يكون الدعاء من المكروب وغيره، فبينها وبين الدعاء عموم وخصوص مطلق.

وقد حذر الله من دعاء غيره بطرق منها:

(١) النهي الصريح عن دعاء غير الله كقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ [يونس: ١٠٦].

(٢) النهي الضمني عن دعاء غير الله، ويتم هذا التضمين إما ببيان أن الله انفرد بالضر والنفع مما يتضمن المنع من دعاء غيره، وإما بالأمر بدعاء الله وهو يتضمن النهي عن دعاء غيره، كقوله تعالىٰ: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢].

(٣) الإنكار علىٰ من دعا غير الله، وبيان أنه من أضل الناس، وأنه لن يحصل علىٰ مراده كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

(٤) أن الله نص علىٰ أن دعاءه وحده عبادة، ودعاء غيره شرك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، والربط بين الدعاء واعتباره عبادة ظاهر في الآية، وقال تعالىٰ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] فقوله: ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ نص صريح أن دعاء غير الله شرك.

وضابط الشرك في الدعاء: "أن يدعو غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله"، كمن دعا ميتـًا أو غائبـًا أو حاضراً فيما لا يقدر عليه إلا الله، فقد أشرك كأن يقول: يا سيدي فلان انصرني أو أغثني، ونحوها، وهي في المدائح النبوية الشركية كالبردة للبوصيري وبعض كلام البرعي وغير هؤلاء.

وأما إذا دعا غير الله أو استغاث به فيما يقدر عليه فليس بشرك كما قال تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، قال ابن عثيمين: "طلب الاستغاثة ممن يقدر علىٰ إزالة الشدة ليس من الشرك... وإذا طلبت من أحد الغوث وهو قادر عليه فإنه يجب عليك تصحيحـًا لتوحيدك أن تعتقد أنه مجرد سبب"(١).

---

(١) القول المفيد (١/ ٢٦١).

رابعاً: المحبة والخوف:

الشرك في المحبة من أنواع الشرك الأكبر، وهو أصل الشرك العملي، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧] فحكم بخلودهم في النار لإشراكهم في محبة التأله والتعظيم.

وخرج بذلك المحبة المشتركة بجميع أنواعها، كالمحبة الطبيعية ومحبة الإشفاق ومحبة الأنس، فهذه لا تستلزم التعظيم ولا تقدح في محبة التأله إلا إذا قدمت علىٰ محبة الله ورسوله، كقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

وأما شرك الخوف فهو أن يخاف من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كأن يخاف طاغوتاً أن يصيبه بمرض أو فقر، فيخشاه خشية التعظيم التي لا تكون إلا لله، كما قال تعالىٰ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [هود: ٥٤]، فمن خاف من الأوثان وآلهة المشركين وقع في الخوف المخرج من الملة.

ويخرج نوعان هما:

(١) ترك بعض الواجبات خوفاً من الناس، فهذا ينافي كمال التوحيد لا أصله، كمن يخشىٰ الناس فلا يأمر بالمعروف ولا ينهىٰ عن المنكر، وكثير من الناس يقع منه هذا،

وفيه شعبة أو أكثر من هـذا الخـوف، وأكثر شـعب الخـوف المـذموم مداهنـة الخلـق في الحق، وقد جاء في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس!"[١].

(٢) الخوف الطبيعي وهو خشية المحاذير الدنيوية، كالخوف من عدو أو سبع، فهذا غير مذموم إذا تحقق وانعقدت أسبابه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧].

وأما إذا كان وهميًّا أو سببه ضعيفًا فهو الجبن، وهو مذموم، وقد استعاذ عَلَيْهِ السَّلَامُ من الجبن.

خامساً: شرك الإرادة:

لابد أن يكون قصد العبد في أعماله الصالحة ابتغاء وجه الله، ولا يدركه إلا الموفق، والناس في هذا المقام أربعة أقسام:

(١) من يريد ربه ويريد ثوابه، وهؤلاء خواص الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

(٢) من يريد من الله ولا يريد الله، كمن يرجو نعيم الجنة من الأكل والشرب والنكاح ولا يطلب ما هو أعلى من ذلك من رضا الله ورؤيته سبحانه، ويميل لهذا المتكلمون المعطلة.

(٣) من يريد الله ولا يريد منه، فيزعم أنه يعبد الله محبة له وحده لا طلباً لجنته ولا خوفاً من عقابه، وهذا يكثر في الصوفية، وهو بدعة كما قال تعالى:

---

(١) الترمذي برقم "٢٤١٤" وصحح الألباني إسناده.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فإنه أثنىٰ علىٰ خواص خلقه بطلب ثوابه والخوف من عقابه.

(٤) من لا يريد الله ولا يريد ثوابه، وإنما يريد الحياة الدنيا وزينتها كما قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وهنا حالتان:

- من لم يرد إلا الدنيا، فهؤلاء إرادتهم شرك أكبر.
- ومن أراد الآخرة لكن عرضت له الدنيا في بعض أعماله لا في كلّها، كمن يصلي ويحسن للناس أو لكي يحفظ الله ماله ولكي يدوم النعيم عليه، وكمن يحج ليصيب المال ونحوها، وهذا العارض له ضرران:

أ. أن هذا يقدح في كمال التوحيد، فهو موحد مخلص من جهة، وغير مخلص من جهة، وهذا يجري علىٰ أصول أهل السنة في أن المعين يجتمع فيه كفر وإيمان ونفاق وإيمان وفجور وتقوىٰ.

ب. أن هذا يقدح في أجر العمل بحسبه[1]، فإن كان يريد الآخرة ويريد الدنيا فظاهر النصوص بطلان العمل، وأما إن كان الحامل له ابتغاء وجه الله ثم ترتب علىٰ ذلك شيء من الدنيا فظاهر النصوص نقصان عمله.

---

(١) الذي ظهر لي أن هذا قسمان -أيضاً-: فالأول يضر كمال التوحيد بحسبه، وهو أن يريد الدنيا بعمل الآخر وأعلاه الرياء، والثاني جائز وضابطه أن يعمل العمل الصالح ويرجو مطلق الثواب سواء كان ثواباً دنيويًّا أو أخرويًّا لأن النصوص نصت علىٰ طاعات ووعدت عليها بوعود دنيوية وهي كثيرة، وهو حينها من الأول.

سادساً: شرك الطاعة:

وهو طاعة الخلق في تبديل شرع الخالق، قال تعالىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

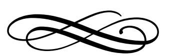
وإطاعة الكبراء في تحليل الحرام أو تحريم الحلال علىٰ درجتين[١]:

- **الأولى**: أن يتبعوهم علىٰ التبديل معتقدين حل الحرام وحرمة الحلال، فهذا كفر وشرك.
- **الثانية**: أن يطيعهم مع بقاء اعتقاده بحرمة الحرام وحل الحلال، فهؤلاء لهم حكم أصحاب الذنوب، وبهذا يكون شرك الطاعة منقسمًا إلىٰ أكبر وأصغر.

وشرك الطاعة يخشى على فئات:

(١) بعض أهل التقليد؛ إذ ربما أطاع إمامه أو شيخه في أمر يخالف الدليل، ولهذا قال أحمد: "عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلىٰ رأي سفيان! والله تعالىٰ يقول: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك؛ لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك".

(٢) اتباع أئمة البدع، فمن اتبع إمامه مع علمه بخطئه فهو مشرك مبتدع.



---

(١) مختصر من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، الفتاوىٰ (٧/ ٧٠).



الحكم بغير ما أنزل الله

الحكم بغير ما أنزل الله تعالىٰ يتضمن في كثير من الحالات شرك الطاعة وزيادة؛ لأنه لا يقتصر علىٰ تحليل الحرام وتحريم الحلال، وإنما يذهب إلىٰ تنحية الشريعة وإحلال أحكام الخلق مكان حكم الخالق كما هو الحال في الياسق قديماً والقانون الوضعي حديثا.

والياسق هو: "عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها "جنكيز خان" من شرائع شتىٰ، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً، يقدمونها علىٰ الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتىٰ يرجع إلىٰ حكم الله ورسوله"(١). ومثل الياسق القانون الوضعي.

وللحكم بغير ما أنزل الله ثلاثة جوانب رئيسة هي:

(١) التشريع، وهو سن ما لم يأذن به الله من شرائع ودساتير ليسير عليها الناس في معاملاتهم وشؤون حياتهم، وهذا شرك في الربوبية حيث إن الله منفرد بالخلق، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، **وقد ذكر ابن عثيمين أن التشريع كفر بشرطين:**

---

(١) تفسير ابن كثير عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

أ. أن لا يكون الحاكم متأولاً كمن أجاز العينة معتقداً حلها.

ب. أن لا يكون مضلَّلاً كمن أقنعه علماء السوء بأن التشريع الوضعي لا يخالف الشريعة.

(٢) الحكم بين الناس بغير ما أنزل الله كالعادات والأعراف القبلية، وقد وصف الله من لم يحكم بين الناس بما أنزله الله بثلاثة أوصاف وهي: "الكفر، والفسق، الظلم" فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقال: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧]، وقد اختلف أهل العلم هل هي لموصوف واحد، أم لموصوفين متعددين؟

فمن قال: إنها لموصوف واحد قال: إن المعنىٰ أن من لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر فاسق ظالم.

ومن قال: إنها لموصوفين متعددين قال: إن الحكم بغير ما أنزل الله منه ما هو كفر ومنه ما هو فسق ومنه ما هو ظلم.

وبناء على أنها لمتعددين يكون كفرا في الحالات التالية:

أ. إذا اعتقد أن حكم غير الله أحسن من حكمه فيكفر؛ لأنه مكذب للقرآن: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]

ب. إذا جحد وجوب حكم الله ورسوله؛ لأن من جحد أصلاً فقد كفر.

جـ. إذا اعتقد أن حكم غير الله يماثل حكم الله؛ لما في ذلك من تسوية المخلوق بالخالق.

د. إذا اعتقد جواز الحكم بغير ما أنزل الله؛ لأن من استباح ما علم بالضرورة تحريمه كفر.

هـ. إذا استهان بحكم الله؛ لأن الاستهانة تنافي إيمان القلب.

و. أن لا يلتزم بحكم الله ورسوله.

ويكون فسقاً في حكم الكبيرة التي لا تخرج من الملة عندما يلتزم بحكم الله ورسوله لكنه يخالف ذلك في وقائع معينة لشهوة أو لرشوة أو محاباة أو نحوها، فهو ظالم أو فاسق، وليس بكافر كفراً مخرجاً من الملة.

ويكون من الخطأ إذا اجتهد فأخطأ لقوله عليه السلام: "إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر".

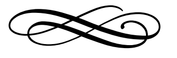
(٣) التحاكم لغير شرع الله وهو التقاضي في فصل الخصومات إلىٰ غير شرع الله، كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠-٦١]، وتكفير هذا المسلك بشرط[1] إرادته وطواعيته واختياره؛ لأنه قال في الآية: ﴿يُرِيدُونَ﴾، أما المضطر لذلك فحكم الآية لا يعمه، لكن على المضطر إلىٰ التحاكم إلىٰ غير شرع الله أن يعتقد أنهم بمنزلة الشُرط لا بمنزلة الحكّام، فيتحاكم إليهم لأخذ الحق، لا لاعتقاد أنهم علىٰ الحق.

(١) انظر: التمهيد لصالح آل الشيخ (ص: ٤٢٦).

سابعاً: إجمال أنواع الشرك:

وقد أجملها سليمان بن عبدالله[(١)] فيما يلي:

- المحبة.
- التوكل، فلا يتوكل إلا على الله.
- الخوف، فلا يخاف خوف السر إلا من الله.
- الرجاء فيما لا يقدر عليه إلا الله.
- الصلاة والركوع والسجود.
- الدعاء فيما لا يقدر عليه إلا الله.
- الذبح.
- النذر.
- الطواف، فلا يطاف إلا ببيت الله ويكون لله.
- التوبة فلا يتاب إلا لله.
- الاستعاذة.
- الاستغاثة.



(١) انظر: تيسير العزيز الحميد (٣٩- ٤٢).



الشرك الأصغر

وهو كل ما ورد في النصوص أنه شرك ولم يصل إلىٰ درجة الشرك الأكبر، وهو يختلف عن الأكبر في الحكم والحد.

	الأكبر	الأصغر
حده	أن يسوي غير الله بالله فيما هو من خصائص الله	ما جاء في النصوص أنه شرك ولم يصل لحد الأكبر
حكمه	١. لا يغفر لصاحبه أبداً إلا بالتوبة. ٢. يحبط جميع الأعمال. ٣. صاحبه مخلد في النار.	١. مختلف فيه هل يغفر أم لا. ٢. يحبط العمل الذي قارنه. ٣. لا يوجب الخلود في النار. ٤. لا ينقل عن الملة. ٥. يدخل تحت الموازنة.

فأما أن الشرك الأصغر لا يغفر فإن قول شيخ الإسلام اختلف في ذلك، قال ابن عثيمين: "شيخ الإسلام ابن تيمية... اختلف كلامه في هذه المسألة، فمرة قال: الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، ومرة قال: الشرك الذي لا يغفره الله هو الشرك الأكبر"[1].

(١) القول المفيد (١/ ١١٠).

وللشرك الأصغر أنواع كثيرة منها:

١. **الريــاء:**

الرياء مشتق من الرؤية، وهو: إظهار العبادة ليراها الناس ويحمدون صاحبها، ويدخل في ذلك السمعة، والفرق بين الرياء والسمعة أن الرياء لما يرىٰ من العبادة كالصلاة، والسمعة لما يسمع كالقراءة، وهو مضاد للإخلاص.

والصدق في الإخلاص أن يكون باطنه أعمر من ظاهره، والرياء أن يكون ظاهره خيراً من باطنه، وقد كثرت أدلة تحريم الرياء وتنوعت فمن ذلك:

(١) النهي عن الشرك نهياً يعم الرياء وغيره، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

(٢) الأمر بالإخلاص كما قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

(٣) بيان خطر الرياء علىٰ الصالحين، فعن أبي سعيد قال: خرج علينا رسول الله ونحن نتذاكر المسيح الدجال، فقال: "ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟" قلنا: بلىٰ، فقال: "الشرك الخفي أن يقوم الرجل يصلي، فيزين صلاته؛ لما يرىٰ من نظر رجل".

(٤) وصف الرياء بالشرك الخفي، فعن شداد بن أوس قال: "كنا نعد الرياء في زمن النبي الشرك الأصغر"[(١)].

(٥) شدة وعيد الرياء في الآخرة، فقد جاء في الخبر أن أول من يُقضىٰ في أمرهم يوم القيامة الشهيد المرائي والعالم المرائي والغني المرائي في بذله أو بنحوه، رواه مسلم.

---

(١) انظر: صحيح الترغيب والترهيب رقم "٣٥".

(٦) أن الرياء من أسباب الفضيحة على رؤوس الأشهاد، قال عليه السلام: "من سمّع سمع الله به، ومن يرائي يرائي الله به" رواه البخاري.

(٧) أن الرياء مبطل للعمل، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله: "قال الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه"، وغيرها من النصوص. **وقد فصّل ابن رجب أثر الرياء في حبوط العمل على أحوال هي:**

أ- إذا كان العمل رياءً محضاً فهو باطل كله، وصاحبه متوعد بعقوبة المرائين.

ب. إن كان العمل لله لكن خالطه الرياء من أصله فالأحاديث صريحة في بطلانه.

جـ. إذا كان العمل لله ثم طرأ عليه الرياء **فهنا حالتان:**

- **الأولى:** أن يخطر الرياء ثم يدفعه، فلا يضر بلا خلاف.
- **الثانية:** أن يسترسل معه، وهذا بحسب العمل فإن كان متصلاً كالصلاة فالظاهر أن عمله لا يبطل وأنه يُجازى بنيته الأولى.

وأما إن كان العمل لا يرتبط آخره بأوله فينقطع بنية الرياء ويحتاج إلى تجديد النية.

وليس من الرياء أن يعمل الرجل العمل خالصاً لله ثم يقع له القبول بين الناس فيسر ويستبشر، فإن سروره هذا ليس من الرياء، بل هو من عاجل بشرى المؤمن، فعن أبي ذر قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: "تلك عاجل بشرى المؤمن"[(١)].

---

(١) مسلم رقم (٢٦٤٢).

خطورة الرياء:

وخطورة الرياء لا تقتصر على آثاره وأحكامه، وإنما تشمل طرقه ومداخله، فهي أخفى من دبيب النمل، ففي حديث معقل بن يسار أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: "يا أبا بكر، للشركُ فيكم أخفى من دبيب النمل"، فقال أبو بكر: وهل الشرك إلا من جعل مع الله إلهاً آخر؟! فقال النبي: "والذي نفسي بيده، للشركُ أخفى من دبيب النمل. ألا أدلك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟ قال: قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم".

ولهذا كان الرياء من أكثر ما يتوقاه السلف ويخشونه على أنفسهم، قال يوسف بن الحسين: "أعز شيء في الدنيا الإخلاص، وكم اجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه يثبت على لون آخر".

لكن لا ينبغي أن يحمل خوف الرياء على ترك العمل كما تفعل "الملامتية" وهم الذين يظهرون ما لا يحمدون عليه ويكتمون ما يحمدهم الله عليه، ويزعمون أنهم يحتملون ملامة الناس، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

والملامتية قسمان:

- محمودون أبرار، وهم من يظهر ما يستر طاعته بشرط أن يظهر المباح كمن أظهر الغنى وستر الفقر.
- مذمومون جهال، وهم من يظهر المحرم أو المكروه كمن يسرق بدعوى كتمان تقواه، وهؤلاء مذمومون لقوله عليه السلام: "لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه"[1].

---

(١) صحيح الجامع الصغير، رقم "٧٧٩٧".

❁ **علاج الرياء:**

ويتم بطرق:

(١) الدعاء كما في تعليم النبي ﷺ أبا بكر دعاء إذهاب الرياء.

(٢) معرفة فضل الإخلاص، فإن العلم بفضل الإخلاص إذا تمكن من القلب لم يلتفت صاحبه لغيره.

(٣) العناية بما ورد من ذم الرياء.

❁ **العُجب "إعجاب المرء بنفسه":**

الرياء أن يتطلب رؤية عمله، أما العجب فبينه وبين نفسه بحيث يستعظم عمله ويستحسن حاله ويزهو بطاعته مع عدم الالتفات إلىٰ فضل الله بالطاعة، ولهذا قال عليه السلام: "لو لم تكونوا تذنبون لخفتُ عليكم ما هو أكبر من ذلك: العجب، العجب"[١]. ويدخل في خطورة العجب قصة الرجل كثير الطاعة الذي ازدرىٰ العاصي وقال له: "والله لا يغفر الله لك"[٢].

ثانياً: شرك الألفاظ:

ومن أجمع ما ورد عن السلف في شرك الألفاظ ما رواه ابن أبي حاتم بسند حسن[٣] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]: "الأنداد هو الشرك، أخفىٰ من دبيب النمل، علىٰ صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي، وتقول: لولا كلبة هذا

(١) صحيح الجامع الصغير، رقم "٥٣٠٣".
(٢) رواه أبو داود رقم "٤٩٠١".
(٣) انظر: النهج السديد (ص: ٢٢٢).

لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلان، هذا كله شرك". فقد تضمن هذا الأثر ثلاثـاً من صور الشرك في الألفاظ هي:

(١) الحلف بغير الله:

كقول الرجل: والله، وحياتك يا فلان، وحياتي، فمن حلف بغير الله مع الله، أو حلف بغير الله استقلالاً، فقد أشرك لقوله ﷺ: "من حلف بغير الله فقد كفر، أو: أشرك" رواه الترمذي[١].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: "لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره وأنا صادق"؛ لأن الحلف بالله توحيد والكذب ذنب، وحسنة التوحيد أعظم من هذا الذنب، بينما الحلف بغير الله شرك والصدق حسنة والشرك محبط لكل حسنة.

ونصوص النهي عن الشرك كثيرة مروية في مظانها.

وأما ما رواه مسلم بلفظ: " أفلح وأبيه إن صدق " فعن هذا الحديث أجوبة:

- أنه كان قبل تحريم الحلف بغير الله.
- أنها مما يجري على اللسان ولا يراد حقيقته.
- أنه باعتبار إضمار اسم الرب أي: "ورب أبيه".
- قيل: خاص، لكن يحتاج إلى دليل.
- وحكى السهلي أنه تصحيف والأصل: والله، وأنكره القرطبي لأنه يقتضي تغليط الرواة.

---

(١) إسناده صحيح، انظر: النهج السديد (ص: ٢٢٨).

➢ جزم القرافي أن الرواية بلفظ "وأبيه" ليست في الموطأ.

وأقوى الأجوبة الأول والثاني.

(٢) **تعليق نفع على فعل مخلوق**، كقول بعضهم: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في البيت لأتاني اللصوص، فهذا من شرك الألفاظ؛ لأن نعمة الحفظ من اللصوص كغيرها من النعم التي تضاف للمنعم الحقيقي، قال تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل: ٨٣].

وإضافة النعمة إلى غير الله على ضربين[١]:

أ. إضافة النعمة إلى غير الله، فهذه شرك، ثم هي إما شرك أكبر وإما شرك أصغر بحسب اعتقاد القلب وميله، ومن ذلك ما جاء في الحديث أنه عليه السلام لما صلى الصبح في الحديبية على إثر سماء أصابتهم قال عليه السلام: "أتدرون ماذا قال ربكم؟" قالوا: الله ورسوله أعلم: قال: "أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب".

ب. إضافة سبب، وهذه لا حرج فيها لما روى مسلم أن العباس رضي الله عنه قال: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء؛ فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: "نعم، هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار".

(٣) **تسوية المخلوق بالخالق في اللفظ** كقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، ولولا الله وفلان؛ لقوله عليه السلام: "لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن ما شاء الله ثم شاء فلان". وقد وردت نصوص كثيرة تقتضي تحريم عطف المخلوق على الخالق بحرف الواو التي تقتضي التسوية والتنديد، بخلاف العطف بثم التي تقتضي

---

(١) انظر: فتح الباري (١/ ١٠٧-١٠٨).

الترتيب والتعقيب، **وفيها مع ذلك عدة أمور:**

أ. نص النبي على أن هذا العطف من التنديد.

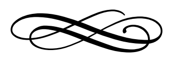
ب. أن هذا لا يقتضي خصوص هذه الألفاظ، بل يعم كل لفظ يقتضي التسوية والتنديد.

جـ. لا تعارض بين بعض الروايات مثل: "قولوا: ما شاء الله وحده" والرواية التي فيها "ثم"؛ لأن الأولى لبيان الأفضل والثانية للجواز.

د. في هذه الأحاديث: أن هذه الألفاظ من الشرك الأصغر؛ إذ لو كانت من الأكبر لأنكرها من أول الأمر.

هـ. أن كونها من الأصغر هو الأصل لكنه ليس مطلقاً؛ إذ قد يقترن بها من القرائن والأحوال ما يجعلها من الأكبر، كمن حلف بغير الله جهد يمينه، كحال بعض القبورية الذين إذا استحلفته بالله حلف دون تردد صادقاً أو كاذباً، أما إذا استحلفته بالشيخ أو الولي لم يقدم على اليمين إلا إذا كان صادقاً.

قال الشيخ سليمان: "وهذا لا يبلغ إليه شرك عُبَّاد الأصنام؛ لأن جهد اليمين عندهم هو الحلف بالله، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] فمن كان جهد يمينه الحلف بالشيخ أو بحياته أو بتربته فهو أكبر شركاً منهم"(١).



(١) تيسير العزيز الحميد (٥٩٣ – ٥٩٤).



مظاهـر الشـرك

للشرك مظاهر في المجتمع وصور قد لا يدرك خطرها كثير من الناس، بل ربما ظنوها من الحق كما في كثير من الرقىٰ والتمائم والتبركات، أو ربما يظن بعضهم أنها من كرامات الأولياء مثل خوارق الكهنة والسحرة، وقد تتبع شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب أهمها، فمن ذلك:

أولاً: الرقى الممنوعة والتمائم:

والرقىٰ: تعويذات ودعوات تقرأ علىٰ المريض أو تقرأ في ماء أو تكتب، ثم تمحىٰ في ماء يشربه المريض، وقد دلت النصوص علىٰ جوازها إذا خلت من الشرك، فعند مسلم أنه قال ﷺ: "اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقىٰ ما لم يكن فيها شرك". واشترطوا لخلوها من الشرك شروطًا هي:

(١) أن تكون بكلام الله ورسوله.

(٢) أن تكون باللسان العربي، أو بما يعرف معناه من غيره.

(٣) أن يعتقد أنها مجرد سبب مشروع.

وأما التمائم فهي اسم جامع لكل ما يعلقه الإنسان علىٰ نفسه أو علىٰ غيره لرفع البلاء أو دفعه، كالودع والأوتار والحلق والخرز والخيوط، والتمائم نوعان:

(١) نوع مختلف في حكمه، وهو ما علق من القرآن أو من أسماء الله وصفاته سبحانه، فقد أجازها بعض الصحابة كعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ومنعها بعض الصحابة كابن مسعود وابن عباس، مما يعني أن فيها قولين:



أ. الجواز، وهو مروي عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

ب. المنع والتحريم وهو مروي عن ابن عباس وابن مسعود وهو الأقرب؛ لأنها ليست كالرقى، فلا تقاس عليها، ومنعاً لامتهان القرآن.

(٢) نوع متفق على تحريمه وهو التعاليق المشتملة على شرك أو تحتمل الشرك، وأدله تحريمها كثرة منها:

- النصوص التي تمنع من التعلق بغير الله، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].
- نصوص تدل على معاملة متعلق التميمة بنقيض قصده، كقوله عليه السلام: "من تعلق تميمة فلا أتمّ الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له" أي: لا جعله الله في سكون ودعة، بل حرك عليه كل مؤذٍ.
- أن تعليق التمائم من الشرك: "من تعلق تميمة فقد أشرك"[(١)].
- عموم الأمر بإزالتها كمثل قوله: "لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت"، قال سعيد بن جبير: "من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة"، وذلك لأنه مستعبد للشيطان، فإذا قطعها فقد أعتقه من رق الشيطان.

ثانياً: التبرك الممنوع:

التبرك يعني: طلب البركة، ويكون بالتماسها إما من المعاني أو الأعيان.

والبركة تعني: حصول الخير أو زيادته، وهي بيد الله كما قال تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

---

(١) انظر: صحيح الجامع الصغير رقم "١٦٣٢".

والمبارك من المعاني والأعيان أنواع هي:

(١) ذكر الله وكلامه كما قال تعالىٰ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. ويخرج من هذا التمائم علىٰ الراجح، أما كتابة آيات علىٰ البدن فقد كان يفعله شيخ الإسلام ابن تيمية[١].

(٢) الرسول ﷺ، وبركات الرسول إما حسية أو معنوية.

فالمعنوية كبركة رسالته، فمن آمن به تحققت له البركة، ومنها آياته ويسر شريعته ووفاؤها بالمقصود.

والحسية إما أفعاله أو ذاته أو آثاره.

أ. فأفعاله كنبع الماء من بين أصابعه وكتكثير الطعام.

ب. وأما ذاته فمثل أي موضع منه، فقد كان يغمس يده في آنية القوم لما فيها من البركة.

جـ. وأما آثاره فشعره وعرقه وفضل شرابه ووضوئه كما عند مسلم: "لقد رأيت رسول الله والحلاق يحلق وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل".

وقد توارث السلف آثاره كشعره وبردته التي كان يلبسها وكثير من أَغراضه التي لامست جسده الشريف، وأهمها البردة التي توارثها بنو العباس إلىٰ أن دخل التتار فأحرقوا بغداد فاحترقت فيما احترق[٢].

---

(١) تخريج عمل شيخ الإسلام إما علىٰ القول الآخر بجواز التمائم، وإما أن التمائم تعاليق مستقلة عن البدن، أما الكتابة علىٰ البدن فليست بتعليق، وحينها تكون من الرقىٰ.

(٢) انظر: البداية والنهاية (٦/ ٨).

ويخرج عن الصور المشروعة في التبرك صور هي:

(١) **التبرك بالمقامات** التي نزلها النبي ﷺ عرضـاً لا قصداً، فإنه ربما مر بمكان أو جلس بمكان أو نام بمكان، دون أن يقصد هذا الموضع بخصوصه، فهذا لا يشرع التبرك به عند جماهير السلف، فعن عمر بن الخطاب أنه رأى الناس يبتدرون موضعـاً للصلاة فيه لأن النبي عليه السلام عرضت له الصلاة فيه فقال عمر: "أيها الناس، إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم مثل هذا، حتى أحدثوها بيعـاً، فمن عرضت له فيه صلاة فليصل، ومن لم تعرض له فيه صلاة فليمض".

وأما ما ثبت عن ابن عمر أنه كان يتحرى كل مكان صلى فيه النبي فهناك أمور:

- أن ابن عمر يحرص على بركة الاقتداء لا بركة المكان.
- أن تحري ابن عمر لا يصل إلى المتوسعين اليوم حتى وقعوا في البدع الصريحة.
- لو سلمنا أن ابن عمر قصد التبرك فهو مخالف لقول جمهور الصحابة رضي الله عنهم.

(٢) **التبرك بقبر النبي**، فإنه لا يجوز التبرك بقبره عليه السلام لقوله عليه السلام: "لعن الله اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"، وعن أبي هريرة: "لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم".

وأما ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنهم أجدبوا ففتحت الكوة من القبر لينزل المطر، فمطروا حتى سمي ذلك العام بعام الفتيق؛ لأن الإبل سمنت حتى تفتقت، فضعيف لأمور:

- أنه من طريق محمد بن زبالة وهو ضعيف.

- أنه مخالف للثابت المشهور المستفيض من حال الصحابة في الاستسقاء.
- أن الحفاظ نصوا على ضعفه ومنهم شيخ الإسلام[(١)].

(٣) **التبرك بالصالحين** قياساً على التبرك بالنبي، وذكروا أن الشافعي تبرك بغسالة ثوب الإمام أحمد، وهذا باطل لأمور.

أ. أن الصالحين لا يقاسون بالنبي ﷺ، ويؤيده أن الصحابة لم يتبرك أحد منهم بسادة الأولياء كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم.

ب. أن القصة المروية عن الشافعي لا تصح كما نص الذهبي[(٢)] وغيره.

جـ. أن فتح هذا ذريعة لفساد عظيم كما هو مشاهد.

د. أن الحالات التي أجيب فيها الدعاء عند قبر شخص معروف، فإما لصدق الداعي لا لخصوص القبر، كما تجاب دعوة المشركين إذا ركبوا الفلك وصدقوا في الافتقار، وإما ابتلاء وامتحان.

الثالث: البقاع المباركة كمكة والمدينة والمسجد الأقصى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وقال: ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، وقال عليه السلام: "اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما بمكة من البركة" رواه مسلم[(٣)].

وبكل حال لا تثبت بركة بقعة من البقاع إلا بدليل وحجة.

الرابع: الأزمنة المباركة كرمضان وليلة القدر وعشر ذي الحجة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣]. وهذه الأزمنة المباركة إنما يتعبد

---

(١) انظر: الرد على البكري (١/ ٩١).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥٨٧-٥٨٨).

(٣) مسلم برقم "٤٦٦".

فيها بالمشروع، وقد أحدث الناس بدعـًا زمانية كالمولد، والإسراء والمعراج، وذكرىٰ الهجرة.

الخامس: المبارك من النعم: كالمطر والزيتون والنخل والخيل والغنم والسحور، فمن ذلك ما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩]، وقال: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: ٣٥].

فينبغي أن يحرص المسلم علىٰ ما فيه بركة بالطريق المشروع، أما ما يعمله الجهال والمشركون من التبرك بأمور لا بركة فيها أو أمور مباركة لكن بغير القدر المشروع فكل ذلك باطل، وهو من سنن المشركين كما في حديث أبي واقع الليثي، فإن المسلمين لما خرجوا لحنين وجدوا شجرة للمشركين كانوا يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال عليه السلام: "سبحان الله! هذا كما قال قوم موسىٰ: اجعل لنا إلهـًا كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبن سُنّة من كان قبلكم".

ثالثـاً: التطـير "التشـاؤم":

التطير هو التشاؤم بمرئي، أو مسموع، أو معلوم، كطير، أو بقعة، أو اسم، أو لفظ، أو يوم، أو شهر. وأصله التطير بالسوانح والبوارح وهي الطير والظباء.

وإنما غلب اسم الطير لأوليته، أو لخفته، أو لأن ما كان يقع في قلوبهم بسببه أقوىٰ من الظباء، ثم كثر استعماله "التطير" وتوسع مدلوله ليشمل كل تشاؤم سواء كان بطير أو غيره.

والتطير من أمر الجاهلية لا الإسلام، قال تعالىٰ: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧]، وقال: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ

مُّسْرِفُونَ ﴾ [يس: ١٨-١٩]، أي: معتدون متجاوزون، فلا يحق لكم تجاوز الإذعان للحق، بل يجب الرضوخ للحق والإيمان بعموم القدر، فالخير والشر واليُمن والشؤم والخصب والجدب بيد الله، أي: ما يقدره عليهم بسبب أعمالهم لا بسبب أوهامهم.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ [القمر: ١٩] فلا يناقض نفي الطيرة؛ لأن المقصود أن هذه الأيام كانت نحسة علىٰ قوم عاد بخصوصهم، لا أن تلك الأيام نحسة لذاتها؛ لأنه قال تعالىٰ: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت: ١٦].

قال ابن كثير: "معلوم أنها ثمانية أيام متتابعات، فلو كانت نحسات في نفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشؤومة، وهذا لا يقوله أحد، وإنما المراد في أيام نحسات، أي: عليهم"(١).

كما لا يرد عليه أن ابتداء عذاب قبيلة عاد قوم هود كان الأربعاء فهو يوم نحس وشؤم أما مطلقاً أو يقيد بكونه آخر أربعاء في الشهر، وبطلان ذلك لأمرين:

أحدهما: أن ابتداء عذابهم لا دليل عليه، وإنما قاله بعض المفسرين، وهو معارض بقول من ذكر أنه الجمعة.

الثاني: أن ما يروىٰ في شؤم الأربعاء لا يثبت لضعفه، ومن أهل العلم من حكم بوضعها كابن الجوزي وابن رجب وابن حجر وغيرهم.

وقد دلت أصول الشريعة علىٰ إثبات القدر خيره وشره من جهة، وإبطال التطير بالمرئيات والمسموعات واعتبار هذا التطير من الشرك، **ومن هذه الأدلة:**

---

(١) البداية والنهاية (١/ ١٢٨).

(١) قوله تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]. فما كتبه الله في اللوح المحفوظ هو الواقع، ولا تأثير للبقاع والأنفس.

(٢) روىٰ البخاري عن أبي هريرة مرفوعًا: "لا عدوىٰ، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر". وهذا يحتمل احتمالين:

أ. أن اللام ناهية أي: لا تتطيروا.

ب. أنها نافية أي: ليس لها ضرر، وهذا الذي رجحه ابن القيم[(١)]؛ لأن النفي أبلغ، ولأن صيغة الحديث تدل عليه في كل الصور المذكورة.

(٣) روىٰ مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي قال: قلت: يا رسول الله، كنا نتطير، قال: "ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم"، ففي قوله: "في نفسه" دليل علىٰ أنه أمر نفسي لا يرجع إلىٰ الأمر الواقع كما قرره ابن القيم أيضًا.

وكلام الإمام ابن القيم هنا يستلزم أنه لا يثبت أثراً لهذه الأمور لا خفيًّا ولا ظاهرًا، إلا أنه قال في مواضع أخرىٰ أن المنفي إنما هو الأثر المطرد الذي يثبته المشركون والطبائعيون، فعند حديث: "الشؤم في المرأة والدار والفرس" أثبت نوعًا خفيًّا من التأثير، لا ينكشف إلا بعد وقوع مسببه[(٢)]، وهذا القول غير مسلم؛ لأن النصوص اطردت علىٰ إبطال التطير علىٰ أبلغ وجه، ويكون هذا الحديث إما مشكلًا لا ينقض القاعدة، أو له معنىٰ يخصه.

(٤) روىٰ أبو داود عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ: "الطيرة شرك، الطيرة شرك، الطيرة شرك" ثلاثًا، فلزم إبطال الطيرة، وإبطال كونها علة أو سببًا أو دليلاً علىٰ المكروه.

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (٣/ ٢٣٤).

(٢) انظر: إعلام الموقعين (٢/ ٢٩٨، ٢٩٩، ٤/ ٣٩٧ -٣٩٨)، ومفتاح دار السعادة (٢/ ٢٥٧).

وهذا لا يمنع أن يصاب المتطير ببعض أوهامه عقوبةً له على إشراكه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، وذلك أنه كما أن المتوكل على الله الموحد يكفيه الله ويصرف عنه السوء، فإن المتشائم يترك وشؤمه عقوبةً له.

وأما حديث: "الشؤم في الدار والمرأة والفرس"[١]، وفي رواية: "إن كان الشؤم في شيء ففي الفرس والمسكن والمرأة" فعنه أجوبة هي:

(١) أن هذا باعتبار المتطير وأن هذا يقع عليه عقوبة له لضعف توكله بخلاف المتوكل.

(٢) وقال بعض أهل العلم: إن الشؤم هنا مفسر لا مطلق، وهو أن شؤم المرأة هو سوء خلق الزوجة أو عقمها، وشؤم الدار ضيقها وجار السوء، وشؤم الدابة منعها ظهرها. ويؤيد هذا المعنى ما جاء في الحديث: "من سعادة ابن آدم ثلاثة: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح، ومن شقاوة ابن آدم ثلاثة: المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء"[٢].

وهناك أجوبة أخرى لا تسلم، منها:

أ. استثناء هذه الثلاثة، يعني إثبات شؤمها حقيقة، وهذا غريب لأنه يفضي للشرك.

ب. تغليط الراوي، وهذا مردود لأن الحديث ثابت من طرق.

جـ. أن الحديث إنما هو إخبار عما تعتقده العرب.

---

(١) رواه مسلم " ١١٥ ".

(٢) ابن حبان والحاكم، وسكت عنه الحافظ (٩/ ١٣٨).

ويلحق بشرح الطيرة أن من وجد داراً ضيقة أو زوجة سيئة فله أن يتركها ويستبدلها بغيرها، وليس ذلك من التطير لحديث المرأة من الأنصار التي ذكرت أنهم سكنوا داراً فهلكوا.. إلخ، فقال لهم: "أفلا تنتقلون عنها ذميمة؟!"[١].

۞ **رابعاً: السحر:**

السحر لغةً: عبارة عما خفي ولطف سببه، وسبب التسمية لاعتبارات، أهمها أن أسبابه خفية لا تدرك بالبصر، ويدخل في اسم السحر لا في حكمه أمور، منها:

(١) الشعبذة، وهي التي تقع بخدع وتخييلات بخفة اليد، لا بسبب الاستعانة بالشياطين.

(٢) السحر المجازي، وهو ما يحدث بسبب أدوية وعقاقير كالهلوسات وغيرها.

(٣) النميمة، وهي نقل الكلام علىٰ وجه الإفساد، ولهذا جاء في الحديث: "ألا أنبئكم ما العضة؟ هي النميمة القالة بين الناس"، والعضه هي السحر، والنميمة تعمل عمل السحر في التفريق، قال يحيىٰ بن كثير: "يفسد النمام والكذاب في ساعة ما لا يفسد الساحر في سنة".

(٤) بعض البيان، لقوله: "وإن من البيان لسحراً". وذلك أن الكلام الحسن البليغ يؤثر في النفوس تأثيراً كتأثير السحر، والحديث محمول علىٰ معنيين:

أ. أنه للذم، حيث إذا أخرج الحق في قالب الباطل والباطل في قالب الحق فيضيع الحق.

ب . إنه للمدح، وسياق الحديث وسبب وروده يؤيد هذا الاحتمال.

---

(١) رواه أبو داود رقم (٣٩٢٤) وصححه الألباني في السلسلة رقم "٧٩٠".

السحـر الحقيقي:

وهو الذي يعتمد فيه الساحر على الجن والشياطين، فيتقرب إليها بالمحرمات والشركيات، **ومن صور الضرر الذي يقع بسببه:**

(١) التأثير على عقل المسحور بالشرود والنسيان، وقد يصل للجنون.

(٢) التأثير على عاطفته بالصرف والعطف أو الحب والبغض.

(٣) التأثير على بدنه إما بالمرض أو الوهن أو نحو ذلك.

والسحر منه تخييل كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه: ٦٦]، ومنه ما له تأثير حقيقي كما قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤].

وقد دلت النصوص على خطورته وشره وعظيم إثمه من طرق، منها:

(١) أنه كفر وشرك أكبر؛ لقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ويؤكد هذا الحكم أنه لا ينال إلا بالشرك، حيث يتقرب الساحر للجن بطرق كفرية.

(٢) أن السحر مما ذمه الله على أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١-٥٢]، قال عمر: "الجبت السحر، والطاغوت الشيطان" ففسر الجبت بالسحر.

(٣) أن السحر من الموبقات، ففي الحديث: "اجتنبوا السبع الموبقات"، قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: "الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس..." الحديث، وعطف السحر على الشرك لا لأنه غيره، وإنما من باب عطف الخاص على العام.

(٤) أن الساحر يقتل بلا استتابة، وهذا ظاهر عمل الصحابة، وهو الذي اختاره شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب، ففي كتاب عمر قبل وفاته بسنة: "اقتلوا كل ساحر"، وهنا أقوال:

أ. إنه يقتل بلا استتابة، وهو مشهور مذهب أحمد واختيار المؤلف.

ب. إنه يستتاب، وهي رواية عن أحمد ومذهب الشافعي.

السحر والتنجيم:

والتنجيم وثيق الصلة بالسحر لقوله عليه السلام: "من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد"[١]، والظاهر -والله أعلم- أن التنجيم طريق من طرق السحر، حيث إن الساحر ربما توجه لنجم أو كوكب فخاطبه بالطلسمات لكي يستنزل روحانيته.

والاعتقاد بروحانية الكوكب منافٍ لأصل الإسلام لأنها مسخرات، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقد كثر في النصوص وأقوال السلف ذم التنجيم والزجر عنه، ومن ذلك:

(١) ما روىٰ ابن عساكر: "أخاف علىٰ أمتي من بعدي ثلاثاً: حيف الأئمة، وإيماناً بالنجوم، وتكذيباً بالقدر"[٢].

(٢) وروىٰ أحمد: "أربع بقين في أمتي من أمر الجاهلية... والاستشفاء بالنجوم.." أي: بنسبة نزول المطر إلىٰ النو، كما ورد التصريح بكفر من استسقىٰ بالأنواء في حديث الحديبية المشهور، وفيه: "أصبح من عبادي مؤمن وكافر".

---

(١) انظر: النهج السديد (ص: ١٤٤).

(٢) صحيح الجامع رقم "٢١٤".

(٣) وقال ابن عباس في قوم يكتبون أبا جاد، وينظرون في النجوم: "ما أرىٰ من فعل ذلك له عند الله من خلاق"(١).

(٤) وبيَّن قتادة أن النجوم إنما جعلت لثلاث خصال: "زينة للسماء، رجوم للشياطين، علامات يهتدي بها السائر"؛ مما يعني أن الأمور الأخرىٰ غير معتبرة شرعا.

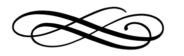
ويتعلق بالتنجيم أمور:

أ. ذم التنجيم يقصد به علم التأثير، وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية علىٰ الحوادث الأرضية، وأن للكواكب تأثيرًا علىٰ السعادة والشقاوة.

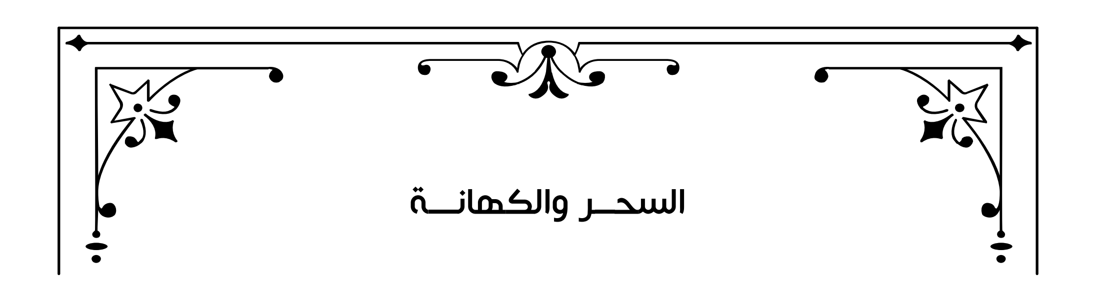
ب. علم التيسير ليس بمذموم، وهو الاهتداء بالنجوم في معرفة الجهات والأوقات.

جـ. الاستشفاء بالنوء قسمان:

- إذا اعتقد أن للنوء تأثيرًا فهذا كفر أكبر.
- إذا اعتقد أن المؤثر هو الله لكنه نسب نوعا من التأثير للنوء فهو شرك أصغر.



(١) مصنف عبدالرزاق. وانظر: النهج السديد (ص: ١٥٢).



السحـــر والكهانـــة

الكهانة: هي ادعاء علم الغيب اعتماداً علىٰ أسباب معينة كالخط وعلم الحرف والأخذ من مسترق السمع، وهو الأصل في الكهانة.

وهي على أصناف بحسب تقسيم الحافظ ابن حجر:

- منها ما يتلقاه الكاهن من الجن، حيث يصعد الجن إلىٰ السماء، يركب بعضهم بعضـاً، فيسترق السمع مما يأخذه من الملائكة، فلما جاء الإسلام حرست السماء، ولهذا كانت إصابة الكهانة في الجاهلية كبيرة كأخبار شق وسطيح، وأما في الإسلام فقلَّت إلا من اختطف الخطفة.
- ومنها ما يخبر الجني به من يواليه بما غاب عن غيره.
- ومنها ما يستند إلىٰ الظن والتخمين والحدس.
- ومنها ما يستند إلىٰ التجربة والعادة، إذ إن الحوادث تدل مقدماتها علىٰ ما يليها[١].

ويطلق علىٰ الكاهن اسم العراف، ومن العلماء من يفرق بينها، واختار ابن تيمية أن العراف يشمل الكاهن والمنجم والرمال.

والكهانة وثيقة الصلة بالسحر من عدة أمور:

(١) أن السحر والكهانة كلاهما يعتمدان علىٰ الاستعانة بالشياطين.

---

(١) ومنه ما يسمىٰ في هذا العصر "الدراسات المستقبلية".

(٢) أن وعيد الذهاب للكهنة كوعيد الذهاب للسحرة، فعن ابن مسعود موقوفاً: "من أتىٰ عرافاً أو ساحراً أو كاهناً فسأله فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد" وقال الحافظ: "بسند جيد"[١].

❁ **حكم الذهاب للكاهن:**

ورد عنه عليه السلام قوله: "من أتىٰ عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد"[٢].

واختلف في حكم الذاهب على قولين:

➢ **الأول**: أنه بحسبه، فإن ذهب وصدقه كفر كفراً أكبر، وإن ذهب غير مصدق فهو كفر أصغر.

➢ **الثاني**: أن الذاهب كفر كفراً أصغر؛ لأن الحديث فسر الكفر بمعناه حيث قال: "من أتىٰ عرافاً فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً"، فلو كان كفراً أكبر لأبطل جميع العمل ولم يقيد بأربعين يومًا.

كما يؤيد هذا أن الحنابلة في المعتمد من مذهبهم لا يكفرون الكاهن، فإذا كان الكاهن لا يكفر فلأن لا يكفر من سأله من باب أولىٰ؛ ولهذا فالساحر أخبث من الكاهن.

(٣) أن النبي صلى الله عليه وسلم أدخل في مسمىٰ السحر بعضاً من فروع الكهانة، ففي الحديث: "إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت". والعيافة: زجر الطير، والطرق: هو الخط.

ويرد علىٰ الخط ما رواه مسلم حيث قال معاوية بن الحكم: ومنا رجال يخطون؟ فقال: "كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك".

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٢١٧).

(٢) انظر: كتاب التوحيد مع القول السديد (ص: ٩٧).

والجواب: أن من وافقه أبيح له الخط، لكن من أين لنا أنه وافقه؟! ولهذا فهو حرام؛ لأن معنى الحديث أنه علقه بممتنع للدلالة على المنع منه.

۞ علاج السحر:

يسمى علاج السحر بالنشرة، وهي نوعان:

(١) نشرة شركية، وهي حل السحر بطريق شركي، ولهذا لما سئل عنها قال: "هي من عمل الشطيان". والمقصود بها نشرة الجاهلية لدلالة معهود الخطاب.

(٢) نشرة شرعية، وهي التي تكون خالية من الشرك، سواء كانت رقية شرعية أو غيرها، والنشرة الشرعية لها صفات هي:

أ. أن تتم قراءة ثلاثة مواضع من القرآن في إناء فيه ماء ونصب على رأس المسحور، وهي قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: ٨١-٨٢]، وقوله تعالى: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٨-١٢١] وقوله: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩] لما رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبي سليم.

ب. ما ذكره ابن بطال من كتاب وهب بن منبه أنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر، فيدقه بين حجرين، ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل، ثم يحسو منه ثلاث حسوات، ثم يغتسل به.

جـ. أن يخرج في موضع عضاة، فيأخذ عن يمينه وعن شماله من كل، ثم يدقه ويقرأ فيه ثم يغتسل به.

د. ما جاء في بعض صور الحل والنشرة:

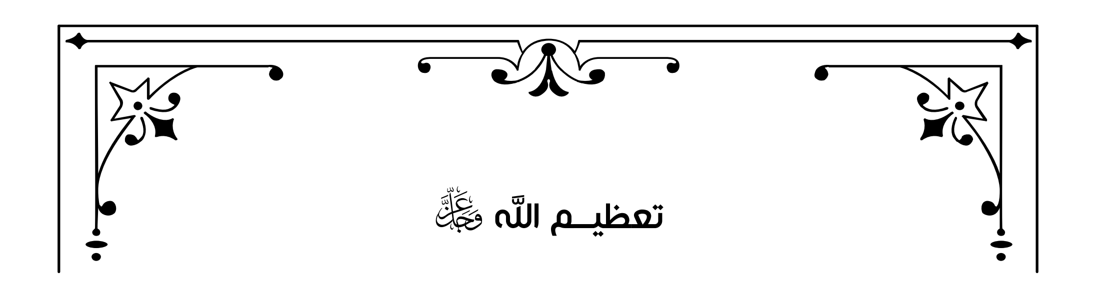
وأن الحل أن يأخذ فأساً ذا قطارين، فيضعها داخل حطب قضبان، فيوقد عليها، ثم يستتر من الناس ويبول عليها، فإن الممنوع من جماع أهله ينحل عنه المنع.

وأما النشرة فأن يجمع ما ستطاع من ورود المفاوز وقت الربيع، ويضعها في إناء نظيف، ويضع عليها ماءً عذباً ثم يشربها.

هـ. ما لخصه ابن القيم من هدي النبي ﷺ في علاج السحر وهي:

- **أحدها**: استخراج السحر من مكانه وإبطاله، كما استخرج سحره من مشط ومشاطة.
- **والثاني**: الاستفراغ أو الفصد والحجامة في موضع السحر حتى يخرج.
- **الثالث**: الأذكار والآيات والدعوات.





وتعظيمه هو الأصل الذي يقوي التوحيد ويبطل الشرك، ويكون بطريقتين:

(١) الحرص علىٰ كل ما يقوي هذا الأصل وينميه.

(٢) الابتعاد عن كل ما يضعفه وينقصه ويفسده.

موجبـات التعظيم:

وقد دلت النصوص على ذلك من جهات:

الأول: نصوص تصف عظمة الله كما قال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقد روىٰ البخاري عن ابن مسعود: "جاء حبر من الأحبار إلىٰ رسول الله فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل الأرض علىٰ أصبع، والأرضين علىٰ أصبع، والشجر علىٰ أصبع، والماء والثرىٰ علىٰ أصبع، وسائر الخلائق علىٰ أصبع، فيقول: أنا الملك ! فضحك النبي حتىٰ بدت نواذجه تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٩٧]".

الثاني: نصوص تصف عظمة أكبر المخلوقات كقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦]، وآية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال عليه السلام: "ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض"(١).

وعن جابر بن عبدالله: "أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالىٰ حملة العرش، ما بين شحمة أذنه إلىٰ عاتقه مسيرة سبعمائة سنة"(٢)، ووجه الدلالة أن هذه عظمة بعض مخلوقاته فما بالك بعظمته؟! فهو أكبر وأعظم من باب أولىٰ.

الثالث: نصوص تدل علىٰ حال أعظم المخلوقات معه سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، روىٰ البخاري عن أبي هريرة: "إذا قضىٰ الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كالسلسلة علىٰ صفوان، ينفذهم ذلك، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير".

فالكبير الذي تصعق الملائكة لكلامه لا يجوز شرعاً ولا عقلاً أن يجعل له شريك من خلقه.

۞ قوادح التعظيم:

وهي الأمور التي تقدح في أصله أو كماله وهي كثيرة:

(١) **عدم القناعة بالحلف بالله** بقوله: "ومن حُلف له بالله فليرض، ومن لم يرض بالله فليس من الله"(٣).

وهذا خاص بمن كان ثقةً في الظاهر.

---

(١) قال الألباني: صحيح، شرح الطحاوية برقم (٣٠٠).
(٢) قال الألباني: صحيح شرح الطحاوية برقم (٢٩٨).
(٣) انظر: صحيح الجامع للألباني رقم (٧٢٤٧).

فقد جاء في الأثر: "فتبرئكم يهود بخمسين يمينـًا؟" قـالوا: وكيف نقبل أيمان قومٍ كفار؟! فلما رأىٰ رسول الله أعطىٰ عقله[١]. وفي هذا أمور:

أ. يتعين الرضا بحلف الثقة العدل.

ب. إذا بـذل الثقـة اليمـين، ورفـض الخصـم، وطلـب الحلـف بـالطلاق أو الـدعاء بالعتق دخل في الوعيد؛ لأنه سوء أدب مع الله، واستدراك علىٰ الشريعة.

جـ. من عرف عنه الفجور والكذب فلا يدخل من لم يصدقه في الوعيد[٢].

(٢) التسمي بأسماء التعظيم التي لا تليق إلا بالله:

فعنـد مسـلم أن النبـي ﷺ قـال: "إن أخنـع اسـم عنـد الله رجـل تسـمىٰ ملـك الأملاك، لا مالك إلا الله". وقد ألحق العلمـاء بملـك الأمـلاك كـل اسـم أو لقـب في معناه، مثل شاهان شاه، وقاضي القضاة مع أن الحافظ ابن حجر[٣] ذكـر الخـلاف في قاضي القضاة، هل هو ممنوع أم جائز؟

فالمـانعون احتجـوا بـأن هـذا مـن خصـائص الله تعـالىٰ، والمجيـزون احتجـوا بقوله عليه السلام: "أقضاكم عليّ"، والراجح المنع منه، وهو اختيار المؤلف.

ويتعلق بهذه المسألة أمران:

أ. أن قولـه: "إن أخنـع اسـم عنـد الله" مـن معاملـة هـذا المتعـاظم المفخـم لنفسـه بنقيض قصده؛ إذ هو أبغـض الخلـق وأحقـرهم يـوم القيامـة، ويقابلـه أن أحـب الأسماء عبدالله وعبدالرحمن لدلالتها علىٰ التذلل والخضوع لله.

ب. يلـي هـذه الأسـماء في القبـح اسـم: سـيد النـاس، وسـيد الكـل؛ لأنهـا لا تصـدق إلا علىٰ الرسول ﷺ.

---

(١) مسلم رقم (١٦٦٩).

(٢) انظر: القول السديد لابن سعدي (١٤٢ -١٤٣).

(٣) انظر: فتح الباري (١٠/ ٥٩٠).

(٣) التكني بكنية أو وصف ينافي احترام أسماء الله وتعظيمها كأبي الحكم، فقد روىٰ أبو داود بسند صحيح[١] عن أبي شريح أنه لما وفد إلىٰ رسول الله مع قومه سمعهم يكنونه بأبي الحكم، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: "إن الله هو الحكم، وإليه الحكم، فلم تكنىٰ أبا الحكم؟" فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين، فقال رسول الله: "ما أحسن هذا، فما لك من الولد؟" قال: لي شريح ومسلم وعبدالله، قال: فمن أكبرهم، قلت: شريح، قال: فأنت أبو شريح، فغير النبي كنيته التي لوحظ فيها معنىٰ الحكم والفصل، تعظيماً لاسم الله، ويوضح ذلك أن أسماء الله نوعان:

أ. نوع يختص بالله وحده، كاسم: الله، الرحمن، رب العالمين، فهذا لا يسمىٰ بها غيره، وإن سمي بواحد منها وجب تغييره.

ب. نوع لا يختص به كالرحيم والسميع والبصير والحكم، فهذا قسمان:

- إذا لوحظ معنىٰ الصفة منع منه.
- إذا لم يلاحظ معنىٰ الوصف وكان عَلَماً محضاً لم يمنع.

ودليل هذا التفريق[٢] أنه عليه السلام منع أبا الحكم وأقر أسماء أخرىٰ كالحكم بن العاص.

(٤) الدعاء بألفاظ تنافي كمال الله تعالى وعظمته؛ لإيهامها بنقص أو حاجة أو فقر، فقد روىٰ البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا إذا كنا مع النبي في الصلاة قلنا: السلام علىٰ الله من عباده، السلام علىٰ فلان وفلان، فقال النبي: "لا تقولوا: السلام علىٰ الله؛

---

(١) انظر: النهج السديد (ص: ٢٣٤).

(٢) استنبطه ابن عثيمين انظر: القول المفيد (٣/ ١٨، ١٩، ٢١، ٢٢).

فإن الله هو السلام، ولكن قولوا: التحيات لله، والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين، فإنكم إذا قلتم أصاب كل عبد في السماء -أو: بين السماء والأرض-، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ثم يتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو".

فنهىٰ عن الدعاء بالسلام لأنه دعاء بالسلامة من كل عيب ونقص، ومخاطبة الله به يوهم العيب والنقص، والله كامل سبحانه، فيطلب منه السلام لا يطلب له.

ومما يوهم النقص ويقدح في التعظيم الدعاء المعلق بالمشيئة، فعن أبي هريرة مرفوعـًا: "لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي أن شئت، ارحمني إن شئت، ارزقني إن شئت، وليعزم مسألته؛ إنه يفعل ما يشاء، لا مكره له".

وقد اختلفوا هل هذا النهي راجع لعلة للرب أم للعبد؟

أ. فقال قوم: إن علة النهي راجعة إلىٰ أن تعليق الدعاء بالمشيئة يوهم أن الله قد يعطي السائل وهو كاره، وأن دعاءه قد يثقله أو يكرهه كأن تقول للمخلوق: أعطني إذا كنت تقدر!

ب. وقال آخرون: إن المنع بسبب أن في تعليق الدعاء علىٰ المشيئة تردد من العبد وعدم جزم، فليس فيه تحقيق الاضطرار والافتقار.

وظاهر سياق الحديث أن العلة الأولىٰ الراجعة للرب هي المقصودة.

(٥) **قول السيد**: عبدي أو أمتي، وقول العبد: ربي؛ لأن فيها تعظيمًا لا يليق بالمخلوق. فعن أبي هريرة مرفوعـًا: "لا يقول أحدكم: أطعم ربك، ووضئ ربك، أسق ربك، وليقل: سيدي مولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي أمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي".



وأما قوله: "أن تلد الأمة ربها أو ربتها" فأجاب عنه النووي بجوابين:

أحدهما: أن النهي للكراهة، والحديث الآخر للجواز.

والثاني: أن النهي عن الإكثار دون الاستعمال النادر.

وأما قول المملوك: سيدي فظاهره الجواز لهذا الحديث ولأحاديث أخرىٰ منها قوله ﷺ: "إن ابني هذا سيد" وقوله لسعد بن معاذ: "قوموا إلىٰ سيدكم".

وأما ما جاء في مسلم من رواية وكيع وأبي معاوية أنه قال في حديث أبي هريرة: "ولا يقل العبد لسيده: مولاي" فقد اختلف الرواة عن الأعمش في ذكر هذه اللفظة، ورجح النووي أن حذفها أصح.

ويكره للسيد أن يقول لمملوكه: "عبدي وأمتي" بل يقول: "غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي؛ لأن حقيقة العبودية لا يستحقها إلا الله".

(٦) رد من سأل أو استجار بالله: فقد روىٰ النسائي بسند صحيح[١] عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن استجار بالله فأجيروه، ومن آتىٰ إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له حتىٰ تعلموا أن قد كافأتموه".

وروىٰ أبو داود بسند جيد[٢] عن ابن عباس مرفوعاً: "من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بوجه الله فأعطوه".

وروىٰ النسائي بسند صحيح[٣] عن ابن عباس مرفوعا حديثا وفيه: "فأخبركم بشر الناس منزلة؟" قلنا: نعم يا رسول الله، قال: "الذي يسأل بالله العظيم

(١) انظر: النهج السديد (ص:٢٤٩).
(٢) انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٤٥٣) رقم "٢٥٣".
(٣) انظر: السلسلة الصحيحة (١/ ٤٥٦)، رقم "٤٥٥".

ولا يعطي به". ويتعلق بهذا الأصل مسألتان:

أ) في الحديث دلالة ظاهره على وجوب إعطاء من سأل بالله تعظيماً لله؛ بشرط أن لا يكون المطلوب إثماً، وأن لا يلحق المسؤول مشقة أو ضرر.

ب) قد يفهم من قوله: "ومن سألك بوجه الله فأعطوه" جواز السؤال بوجه الله تعالى، إلا أن هذا الفهم يعارض ما رواه الطبراني بإسناد حسن: "ملعون من سأل بوجه الله".

فإنه دليل على تحريم السؤال بوجه الله تعالى، وأن هذا السؤال من الكبائر، لكن يشكل عليه ما ثبت من استعاذة النبي بوجه الله تعالى.

وقد أجاب العلماء بأجوبة منها: أن السؤال بوجه الله مختص بسؤال المخلوق دون الخالق، ويدل عليه سياق الحديث، ومنها أن السؤال المنهي عنه إنما يكون مختصًّا بالأمور الدنيوية دون الأخروية تعظيماً لله، ويقويه حديث: "لا يسأل بوجه الله إلا الجنة" إلا أنه حديث ضعيف الإسناد، فيبقى الاستدلال به محل نظر[1].

(٧) إساءة الظن بالله سبحانه وتعالى:

وإحسان الظن بالله مبني على أمرين:

- صفات الله الكاملة التامة، وهي العلم برحمة الله وإحسانه وإنعامه وفضله.
- عجز المرء وأنه ناقض مقصر محتاج مفتقر.

وإنما يتولد الظن السيئ إما من جهل المرء بربه، أو جهله بنفسه، أو بهما معاً، فمستقل ومستكثر.

(١) انظر: ضعيف الجامع الصغير (٦/ ٩٢) رقم "٦٣٦٦".

وقد ذم الله من أساء الظن بربه، فمن ذلك قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقوله تعالىٰ: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وظن الجاهلية هو المنسوب إلى أهل الجهل، وله أمثلة كثيرة، منها:

أ. الظن بأن الله لا ينصر دينه.

ب. القنوط من رحمة الله وأن رحمة الله لا تسع التائب.

جـ. الظن بأن من صدق في رغبته وتوكله فإن الله لا يجيبه ولا يغيثه.

د. الظن بأن ما أخبر الله به عن نفسه من الصفات ظاهره التشبيه والتمثيل، وأن نصوص الصفات رموز.

هـ. إنكار القدر أو الحكمة وإساءة الظن بعدله وعطائه، وهذا كثير فإن من الناس من يظن أنه مبخوس الحظ.

(٨) **كثرة الحلف بالله**، قال تعالىٰ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩] أي:

- ➢ لا تتركوها بغير كفارة.
- ➢ أو لا تحلفوا.
- ➢ أو لا تحنثوا.

والآية تعم كل هذه المعاني، فتدل الآية بالتضمن علىٰ النهي عن كثرة الحلف، ومناط النهي أن كثرة الحلف تدل علىٰ أنه ليس في قلب الحالف من تعظيم الله ما يقتضي هيبة الحلف بالله، لكنه علىٰ الصحيح مقيد باليمين المعقود والمقصود[(١)]؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٥]. ومما استدل به المؤلف غير آية المائدة الأدلة التالية:

أ. فعن أبي هريرة مرفوعـًا: "الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة" رواه البخاري ومسلم، ويحتمل هذا النهي احتمالات:

(١) أنه اليمين الكاذبة لقوله: "اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ممحقة للكسب"[(٢)].

(٢) ويحتمل كثرة الحلف لحديث مسلم: "إياكم وكثرة الحلف في البيع؛ فإنه ينفق ثم يمحق" ولحديث سلمان[(٣)]: "ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه".

وقد استدل المؤلف بحديث سلمان علىٰ ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون، وقد تعقبه ابن عثيمين[(٤)] بأن هذا ليس علىٰ إطلاقه، فإن النبي ﷺ حلف

---

(١) انظر: القول المفيد (٣/ ٢٢٠).
(٢) مسند أحمد رقم "٧٢٠٧".
(٣) يحتمل أنه سلمان الفارسي، ويحتمل أنه سلمان بن عامر الضبي، انظر: فتح المجيد (ص: ٥٠٧).
(٤) انظر: القول المفيد (٣/ ٢٣٦ -٢٣٧).

ولم يستحلف، حيث أمره الله أن يحلف في مواضع من القرآن، كما أنه ربما تعين وحصلت به مصلحة، كحديث المخزومية وفيه: "وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"... إلخ.

ب. حديث ابن مسعود: "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته" رواه البخاري، فذمهم على التساهل في اليمين.

(٩) **نكث العهود والمواثيق**، وهو منافٍ للوفاء بها تعظيماً لأسماء الله الذي وثقت بذكره، قال تعالىٰ: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١]، أي: ضامناً ومتكفلاً بوفائكم بالعهد، ويدخل فيه كل عهد سواء عهد اليمين أو غيره.

ونكث العهد منافٍ للإيمان الواجب؛ لدلالته على قلة تعظيم الناكث لربه، وقد جاء تحريم الغدر بطرق بليغة منها:

(أ) تقبيح حال الناكث وتشبيهه بما يدل على سفاهته، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [النحل: ٩٢].

(ب) أن المسلم إذا نكث العهد صد بذلك عن دين الله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ٩٤]، والدخل المكر والخديعة، وذلك أن المحلوف له مطمئن للعهد بسبب اليمين، فيتمكن الحالف من ضره بما يريد.

وذهب بعضهم إلىٰ أنها خاصة بنكث البيعة مع الرسول عليه السلام؛ لأن الوعيد الشديد في الآية لا يليق بغيرها.

والظاهر عموم الوعيد؛ إذ الاعتبار بعموم اللفظ لاسيما إذا تحقق بذلك صد الكفار عن الدخول في الإسلام ونحو ذلك.

(جـ) النهي عن الغدر في الحرب، فعند مسلم من حديث بريدة أنه إذا أمّر أميراً علىٰ جيش أو سرية أوصاه بالتقوىٰ في خاصة نفسه، وأوصاه بالمسلمين معه خيراً، ثم قال:"اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً". وقد أوضح ابن عثيمين[١] أن لنا مع المشركين ثلاث حالات:

الأولى: أن لا يكون بيننا وبينهم عهد، فيجب قتالهم بعد دعوتهم بشروط.

الثانية: أن يكون بيننا وبينهم عهد محفوظ، فيجب الوفاء به معهم.

الثالثة: أن يكون بيننا وبينهم عهد، فنخاف خيانتهم فيه، فهنا يجب أن ننبذ إليهم العهد، وأنه لا عهد بيننا.

(د) تحريم إعطاء عهد الله ورسوله، وإنما يعطىٰ عهد القائد أو عهد أصحابه تعظيماً لعهد الله ورسوله، فلو نكث جاهل أو معتدٍ كان نقض عهد الجيش أهون من نقض عهد الله رسوله، فإنه قال في الحديث: "وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله".

والذمة: العهد. **وتخفر**: تنقض.

---

(١) انظر: القول المفيد (٣/ ٢٤٤).

(هـ) عظيم وعيد الناكث يوم القيامة، فقد روىٰ البخاري عن نافعٍ قال: لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر حشمة وولده، فقال: إني سمعت النبي يقول: "ينصب لكل غارد لواء يوم القيامة".

ثم شدد في نقض البيعة، وأن تعظيمها من تعظيم عهد الله، حتىٰ قال لمن تحت يده: "وإني لا أعلم أحداً منكم خلعه ولا بايع في هذا الأمر إلا كانت الفيصل بيني وبينه".

ومن أمثلة ذلك: ما ذكره ابن كثير عن معاوية رضي الله عنه أنه عاهد الروم علىٰ أمد، فلما انقضىٰ سار في آخر الأجل إليهم، فنهاه عمرو بن عبسة وقال: الله أكبر يا معاوية، وفاء لا غدر، سمعت رسول الله يقول: "من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقدة حتىٰ ينقضي أمدها" فرجع معاوية بالجيش رضي الله عنه[١].

(١٠) تحريم الإقسام على الله أو الاستشفاع به عند أحد من خلقه، فعند مسلم عن جندب أن رسول الله حدّث: "أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان، وإن الله تعالىٰ قال: من ذا الذي يتألىٰ عليّ ألا أغفر لفلان؟! فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك". والتألي: الحلف.

وهذا له محملان يصلح كل واحد منهما تعليلا للنهي، وهما:

- إذا كان علىٰ وجه الحكم علىٰ الله فيما يفعله بعباده من الثواب والعقاب[٢].
- إذا كان علىٰ وجه استعظام الذنب وأنه أكبر من سعة رحمة الله.

أما إذا كان علىٰ وجه الثقة بالله، فجائز لمن كان من أهل هذه الثقة، فإن من أولياء الله الصادقين من لو أقسم علىٰ الله لأبره.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٨٤).

(٢) ولهذا شدد علماء السلف في تكفير المعين؛ لأن المكفر يقطع بعدم مغفرة الله له. انظر: شرح الطحاوية (٣١٨-٣١٩).

➢ كما أقسم أنس بن النضر وقال: "أتكسر ثنيه الربيع يا رسول الله؟! لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها.."

➢ وكما جاء في مسلم من حديث أويس القرني: "لو أقسم علىٰ الله لأبره".

فمثل هؤلاء يقسمون علىٰ الله ثقة فيه، فلا ينبغي أن يتجرأ علىٰ هذا المقام من يظن أنه من أهله، وربما كان من الأصناف المذمومة.

وأما الاستشفاع بالله عند أحد من خلقه فقد ذكر المؤلف ما فيه من النهي من حديث جبير بن مطعم أنه جاء أعرابي إلىٰ النبي يشتكي القحط وقلة المطر، فقال في أثناء ذلك: فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، ونستشفع بك علىٰ الله، فقال الرسول: "سبحان الله! سبحان الله! فما زال يسبح حتىٰ عرف في وجوه أصحابه ثم قال: "ويحك أتدري ما الله؟! إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله علىٰ أحد" رواه أبو داود وفي إسناده ضعف[١]، إلا أن معناه صحيح، فلا يتوسل بالله إلىٰ خلقه؛ لأن رتبة المتوسل به دون رتبة المتوسل إليه[٢].

۞ السب والاستهزاء:

من أعظم ما ينافي التعظيم سب الله، ويقع على وجوه:

(١) أن يقع تديناً واعتقاداً كما وصف النصارىٰ ربهم بالولد والصاحبة.

(٢) أن يقع استخفافاً وانتقاصاً، وهذا يستلزم الردة المغلظة، ويقتل صاحبه بلا استتابة.

---

(١) انظر: ظلال الجنة من تخريج السنة (١/ ٢٥٢، ٢٥٣) رقم "٥٧٥"، و"٥٧٦".

(٢) كما يظهر -والله أعلم- أنه ساق الشفاعة من النبي ومن الله سبحانه مساق المساواة حيث يشفع هذا عند هذا وهذا عند هذا، ولا شك في تنزيه الله عن مساواة خلقه، وتنزيه نبيه عن الرضا بمثل هذا.

(٣) أن يقع علىٰ وجه غير مقصود؛ كسب الدهر أو الريح، وهذا المآل يخفىٰ علىٰ كثير من المسلمين، ولهذا أفرد المؤلف لذلك بابين، وأورد فيهما ما يلي:

- قوله: "قال الله تعالىٰ: يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار".
- وقوله: "لا تسبوا الريح".

ويدخل في ذلك الاستهزاء بالدين أو ثواب الله أو عقابه كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة: ٦٥].

ويفسرها حديث ابن عمر وغيره قال: "قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء؛ أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله وأصحابه القراء، فقال له عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق، لأخبرن به رسول الله، فذهب عوف إلىٰ رسول الله ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلىٰ رسول الله وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ونتحدث حديث الركب نقطع به عناء الطريق. قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله، وإن الحجارة تنكب رجليه وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول رسول الله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ما يلفت إليه ولا يزيده عليه".

فدل علىٰ أن الاستهزاء بالله ورسوله وآياته كفر أكبر، وأن الاستهزاء بها منافٍ لتعظيم الله.

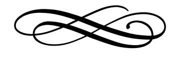
وقد بيّن شيخ الإسلام[1]: أن اعتقاد ما يجب لله واعتقاد رسالة نبيه لابد أن يتبعها مقتضاها من الإجلال والتوقير، فإذا انتفىٰ التوقير والإجلال دل علىٰ أن هذا الاعتقاد وجوده كعدمه، وأن هذا الاعتقاد من جنس خواطر النفس، وليس عن يقين راسخ.

ولهذه القصة دلالات:

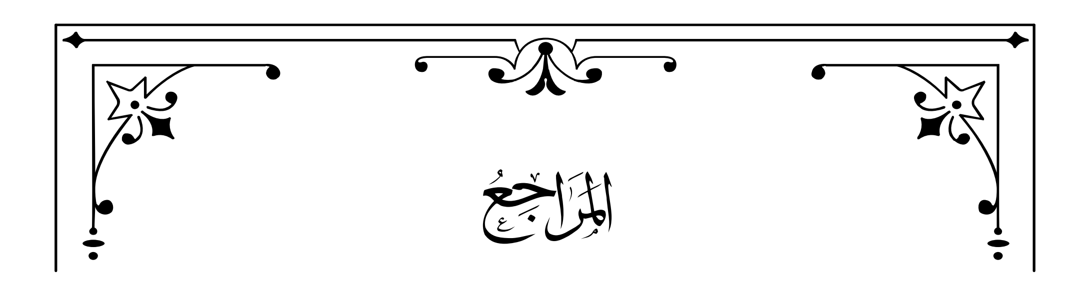
أ. الخوف من النفاق الأكبر، وأنه ربما طرأ فأذهب الإيمان.

ب. الفرق بين النميمة والنصيحة، فذكر أفعال المنافقين والفساق لولاة الأمر ليزجروهم ليس من النميمة بل من النصيحة.

جـ. أن الكذب والافتراء من سنة المنافقين، فقد نسبوا النبي ﷺ لكثرة الأكل والكذب والجبن، وكذبوا في ذلك، فهم أقنع الناس، وأصدقهم، وأشجعهم.



(١) الصارم المسلول (٣٦٩-٣٧٠).



المراجع

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر ابن القيم، مكتبة الكليات الأزهرية، طبعة ١٣٨٨هـ.

(٢) البداية والنهاية، لعماد الدين إسماعيل بن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة السابعة ١٤٠٨هـ.

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، مكتبة دار التراث بالقاهرة.

(٤) التمهيد لشرح كتاب التوحيد، لصالح آل الشيخ، دار التوحيد، الطبعة الأولىٰ.

(٥) تيسير العزيز الحميد، لسليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، الطبعة الخامسة ١٤٠٢هـ.

(٦) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، تحقيق د.محمد رشاد سالم، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، الطبعة الأولىٰ ١٣٩٩هـ.

(٧) الاستغاثة في الرد علىٰ البكري، لابن تيمية، مكتبة دار المنهاج، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٦هـ.

(٨) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٧هـ.

(٩) سلسلة الأحاديث الصحيحة، لمحمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ، مكتبة المعارف بالرياض.

(١٠) سنن أبي داود، المكتبة العصرية، بيروت.

(١١) سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨م.

(١٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي، مؤسسة الرسالة، الطبعة السابعة.

(١٣) شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الطبعة الأولىٰ ١٤٠١هـ، مكتبة دار البيان بدمشق.

(١٤) الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول، لابن تيمية، نشر الحرس الوطني السعودي.

(١٥) صحيح ابن حبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٨هـ.

(١٦) صحيح الترغيب والترهيب، للألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ ١٤٢١هـ.

(١٧) صحيح الجامع الصغير وزيادته، للألباني، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ، المكتب الإسلامي.

(١٨) صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الترث العربي.

(١٩) ضعيف الجامع الصغير وزيادته، للألباني، المكتب الإسلامي.

(٢٠) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ أحمد بن علي بن حجر، تحقيق الشيخ عبدالعزيز بن باز، دار المعرفة ببيروت.

(٢١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، لعبدالرحمن بن حسن آل الشيخ، إصدار المكتب التعليمي السعودي بالمغرب.

(٢٢) القول السديد في مقاصد التوحيد، لعبدالرحمن بن ناصر السعدي، الرئاسة العامة للبحوث بالرياض ١٤٠٤هـ.

(٢٣) القول المفيد، لمحمد بن صالح العثيمين، دار العاصمة بالرياض، الطبعة الأولىٰ ١٤١٥هـ.

(٢٤) مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، مطبعة المساحة العسكرية بالقاهرة ١٤٠٤هـ.

(٢٥) مدارج السالكين، لابن القيم، دار الرشاد بالمغرب.

(٢٦) المستدرك علىٰ الصحيحين، للحاكم، تحقيق: مصطفىٰ عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولىٰ ١٤١٤هـ.

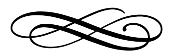
(٢٧) مسند الإمام أحمد، تحقيق: أحمد شاكر، دار الحديث – القاهرة، الطبعة الأولىٰ ١٤١٦هـ.

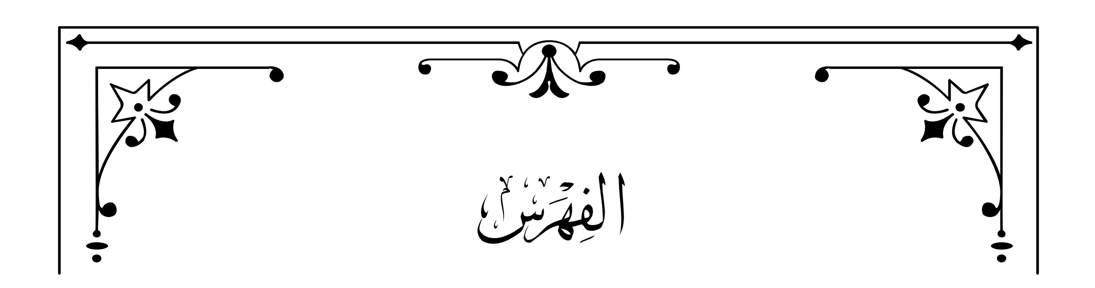
(٢٨) مصنف عبدالرزاق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي – الهند، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

(٢٩) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، دار الكتب العلمية بلبنان.

(٣٠) مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.

(٣١) النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد، لجاسم الدوسري، دار الخلفاء، الطبعة الأولىٰ.





الفهرس

المحتويات	الصفحة


تم بحمد الله